صفحاتٌ مضيئةٌ
من حياة سيّدي الوالد العلّامة

صفحاتٌ مضيئةٌ

من حياة سيّدي الوالد العلّامة

بقلم ابنه

الدّكتور محيي الدّين بن محمّد عوّامة

دار اليسر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مكرِّم العلماء ، كرَّمهم بمعرفته ، وخصَّهم بمحبته وخشيته ، والصلاة والسلام علىٰ سيد السادات ، جعل العلماءَ وُرَّاثــه ، والعاملين منهم خلفاءه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فهـٰذه لمحة من لمحات ، وطاقة من طاقات ، أو إن شئت فقل : طرفة من لمحة ، ووردة من طاقة ، في ترجمة عَلَمٍ من أعلام الأمة ، ورائد من روادها ، اجتزأت نفسي لاجتزائها ، وأجبرت نفسي على اختصارها ، وإلا فكيف يُصبُّ بحر في كاس ، أو كيف يذكر نَفَس وتهمل أنفاس ، فأرجو ألا يكون اجتزائي مضلاً ، ولا اختصاري مخلاً . . .

صحبتك سيدي الوالد حضراً ، وصحبتك سفراً ، صحبتك صحة ، وصحبتك مرضاً ، صحبت نَفْسك ، وشاممت أنفاسك . . .

أكرمني الله بملازمتك حتىٰ سُميتُ (عكازك) ، وأكرمني بمحبتك حتىٰ أصبحت (عنوانك) . . .

إن عشت فمنك وإليك ، وإن سُئلت ففيك وعنك ، وأنا أدرىٰ بك ، وأعرف بفضائلك ، وأخبر بآرائك ، وأنكت لأفكارك ، ومن حق الأمة عليَّ أن أرفع الحُجب ، وأزيح الستر ، لأبين جوانبك ، وأظهر فضائلك ، وأكشف مآثرك . . .

وها أنا أقوم بهـٰذا ، بغير رضىً منك فاعذرني ، وبخفاء عنك فسامحني ، ترىٰ نفسك أقلَّ الغير ، وأضعف الكل ، ولـٰكني أرىٰ أن هـٰذا واجب أمة ، وأمانة تاريخ ، وحق منهج ، وأنا الموقوف المحاسب .

ابنك

محيي الدّين

١/ من شهر رمضان المبارك /١٤٣٤هـ

اسمه ونسبه وولادته

اسمه ونسبه :

هو أبو الفضل ، محمد بن محمد بن عبد القادر بن عمر بن علي عوامة النعيمي الحسيني .

وأمه هي السيدة عائشة بنت أحمد بن علي آل سراج الدين الحسينية [١] .

فهو شريف النسب من جهة أبويه ، حيث ينتهي نسبه إلىٰ سيدنا الحسين ابن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

ولادته :

ولد سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ يوم ١٣٥٨/١٢/١٤هـ ، الموافق لـ ١٩٤٠/٠١/٢٥م ، في حلب الشهباء ، في حي باب المقام ، أحد أحياء حلب الشهيرة ، وأبوابها المعدودة ، وقد سُمي هٰذا الباب بهٰذا الاسم : باب المقام لأنه يُفضي إلىٰ مقام سيدنا إبراهيم ـ عليه وعلىٰ نبينا أفضل صلاة وتسليم ـ الواقع خارج الباب في منطقة يُقال لها : « منطقة الصالحين » .

---

(١) وهي من بنات عمومة شيخه الخصوصي ، فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ .

وقد جاء الوالد إلى الدنيا وعلىٰ وجهه ما يسمىٰ عند أهل بلدنا « البرقع » ، وهو غشاء رقيق يكون على الوجه ، يَخرُج عادة علىٰ من يُؤمل منه خير وصلاح في مستقبله إن شاء الله تعالىٰ .

وكان العَوَامُّ يأخذونه ويجففونه ، ويطوىٰ ويكون في جيب من يدخل علىٰ حاكم أو مسؤول ، وهٰذا أمر توارثته الأجيال عن الأجيال ، ومشهور عندنا في البلاد ، ولم أرَ له ذكراً في الكتب أو التراجم ، فالله أعلم .

نشأته وحبّه للعلم

نشأ سيدي الوالد ـ ولله الحمد ـ في بيئة علمية بفكرها ، تقية وصالحة بأخلاقها ، متواضعة بتعاملها ، بسيطة بحالها ، لها قوت يومها ، ولـٰكنها كبيرةٌ معنىً بحيّها ، ذاتُ مكانة عالية بمجتمعها ، لما عُرف عن جدي رحمه الله تعالىٰ من دماثة أخلاق ، وحسن معشر ، وسياسة وبُعد نظر ، مع علم وصلاح وتقىً .

كان سيدي الجدُّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ جليس الكبار ، ونديم الأكابر ، من الشيوخ والساسة ، بل كانت مجالسه تقصد ، وسهراته تذكر ، وكلماته تتداول [١] .

فعاش سيدي الوالد في بيئة دينية مثقفة ، فالتزم أول ما التزم : زميل والدِه الحميم ، فضيلة الشيخ الفقيه الورع ، محمد السلقيني رحمه الله تعالىٰ ، وكان شيخ الحي وإمامه ، وعمدته وقوامه ، فصار يصلي الصلوات الخمس في مسجده ، مسجد الطواشي ، ويحضر دروسه ومجالس وعظه ، وعمره آنذاك حدود العاشرة .

وقد تأثَّر سيدي الوالد بهـٰذا الشيخ تأثراً كبيراً في خُلُقه وتواضعه ، وزهده وعفَّته ، وفي نكران الذات ، بل انعدامها ،

---

(١) وأرجو الله أن ييسر لي كتابة ترجمة له وافية مستقلة كترجمتي لجدي الآخر ـ والد الوالدة ـ فضيلة الشيخ أحمد الشايط رحمه الله تعالىٰ ، وهي منشورة بموقع رابطة علماء سوريا ، فتنظر .

مع التقوىٰ والخشية ، والرجاء والخوف ، فكانت أفعال الشيخ رحمه الله أمام هـٰذا الطفل الناشئ : تربيةً عملية ، وتنشئة روحية ، من شيخ جليل ، لطفل صغير ، يلاحظه بعين الرعاية والتعليم ، والتربية والتكريم ، فهو أول مشايخه درساً وتدريساً ، وروحاً وتسليكاً ، ولا زالت هـٰذه التربية محفورة في ذهن سيدي الوالد ، يذكرها لنا ، ويربِّينا عليها ، وهـٰكذا أفعال المشايخ المربِّين ، المخلصين الصادقين ، تبقىٰ محفوظة للأجيال ، تتناقلها طبقة بعد طبقة ؛ لأنها كانت جِبلِّيَّة منهم لا تكلُّفية ، نابعة من قلوبهم ، فغرست في قلوب أصحابهم ، ولم تقتلعها الأيام والسنون ، وهـٰذا جزاء الإخلاص .

أما إن كانت ـ لا سمح الله ولا قدر ـ لقلقة لسانية ، وبهرجة جنانية ، لَمَا جاوزت حناجرهم ، ونسيها تلامذتهم قبل أن يقوموا من مجالسهم ، فضلاً من أن يمر عليها أعمار ، أو أن تقتدي بها أعمال ، وهـٰذا جزاء الرياء ، نسأل الله العافية .

❋ ❋ ❋

طلبه للعلم

لقد أكرم الله عز وجل سيدي الوالد بأن أدرك تلك الحقبة الزمنية ، والطريقة التعليمية ، التي كانت سائدة في وقته ، وهي الطريقة المشيخية ، في تلقي التعليم الشرعي ، التي لم تكن ارتبطت بالتعليم الأكاديمي أو الرسمي ، فكان العلم فيها صافياً ، لم تشبه الشوائب ، ولم تكدِّره الحوادث ؛ فالمشايخ فيها يعلِّمون تلامذتَهم وطلابهم بالطريقة الأصيلة التي مشىٰ عليها علماء الأمة وأفذاذها ، من هيئة في التلقي ، وطريقة في الشرح ، واعتماد على الأصول من الكتب ، والأدب قبل هٰذا وذاك ، فاكتسب سيدي الوالد هٰذه الطريقة ، وأُشبع بها ، ثم التحق بعد تخرجه منها بجامعة دمشق ، فاكتسب العلم الأكاديمي المنهجي ، فأخذ ما فيه من خير فلقح به علمه الأصيل ، فجمع بين رسوخ ماضيه ، وتطور حاضره .

وسأعرض لكل جانب منها إن شاء الله تعالىٰ .

طلبه للعلم الرسمي (الأكاديمي) :

تخرج سيدي الوالد من المرحلة الابتدائية من مدرسة حيِّه ـ عمر بن عبد العزيز ـ عام ١٩٥٢ ، ثم التحق بالمدرسة الشعبانية إحدى المدارس الشرعية بحلب آنذاك ، وتنسب إلىٰ شعبان باشا ، أحد ولاة حلب العثمانيين .

كانت هٰذه المدرسة محافظة في برنامجها العلمي وطريقته علىٰ ما ذكرت من طريقة علمية قديمة أصيلة ، ولم تكن تتبع وزارة الدولة في مقرراتها الشرعية أو التعليمية ، فاستفاد منها سيدي الوالد أكبر استفادة ، حيث كان بها تأسيسه العلمي ، فسلك العلوم كلها تدريجياً ، درجة درجة ، ومرحلة مرحلة ، وهٰذا من أسباب رسوخه وقوته ، حيث شُجرت العلوم في ذهنه ، ووضحت معالمها ، فقرأ بها العلوم الشرعية جميعها ، فعرف أولها وآخرها ، ومبدأها ومنتهاها ، وهٰذا ما نفقده في تعليمنا المعاصر .

التحق بها سيدي الوالد في عام ١٩٥٣ ، بتوصية من شيخه الأول فضيلة الشيخ محمد السلقيني رحمه الله تعالىٰ ، فهو صاحب الفضل الأول عليه في انتسابه ودراسته للعلم الشرعي في المدارس الشرعية ، وظل بها علىٰ هٰذه الطريقة إلىٰ نهاية الصف الخامس (أي الثاني ثانوي) ، وكان الأول علىٰ دفعته .

وفي هٰذا العام ، رأت الدولة أن تلغي هٰذه المدارس الشرعية المتفرقة الصغيرة ، وتضمها جميعاً إلىٰ مدرسة الثانوية الشرعية ، والتي كانت تعرف بالمدرسة الخسروية ، وهي المدرسة الشرعية العريقة بحلب ، والتي تخرج منها كبار العلماء السابقين من حلب وحماة وغيرهما من المدن المجاورة ، وقد قال عنها فضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد الحامد : إنها تعدل الأزهر

في تبحر علومها[1] ، وكانت هٰذه المدرسة قد ضُمت إلىٰ وزارة المعارف ، واعترفت الدولة بشهادتها ، فرأوا أن يجمعوا فيها جميع طلبة المدارس الشرعية المتفرقة ، فيدرسوا بها العلوم العصرية والشرعية ، ويتخرجوا منها بشهادات معترف بها في الدولة ، فالتحق بها وتخرج منها عام ١٩٦٢م .

وعند إلغاء المدرسة الشعبانية ـ أي : بعد انتهاء سيدي الوالد من الصف الخامس ـ سافر إلىٰ مصر لمحاولة متابعة الدراسة في الأزهر الشريف مع أخويه في الطَلَب ، فضيلة الشيخ عبد المجيد قطان رحمه الله ، وفضيلة الشيخ حسن قطان حفظه الله ، بإذن من شيوخهم ، فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، رحمهما الله تعالىٰ ، وحمَّلوهما رسائل إلى السادة العلماء هناك : الشيخ محمد فوزي فيض الله ، والأستاذ حسام الدين القدسي ، والشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، وذٰلك في شهر ربيع الأول من عام ١٣٧٩هـ .

ومكثوا في مصر مدة شهرين ، لم تتيسر لهم المتابعة ، فعادوا أيضاً بأمر شيوخهم رحمهم الله تعالىٰ إلىٰ حلب .

وهٰكذا طالب العلم يُسلِمُ قياد أمره وزمام حكمه تماماً لأبه الروحي والعلمي ، فهو أدرىٰ بمصلحته ومنفعته في مسيرة طلبه ، وتدرج تعليمه ، أما إن ظَنَّ أنه تخرج وجاز القنطرة ،

---

(١) « أبي كما عرفته » لفضيلة الشيخ محمود بن محمد الحامد ص ١٢ .

وصار جامعياً ، يدرك مصلحته ، ويعرف أمره فقد خاب ظنه ، وذهب أمره .

بعد تخرج سيدي الوالد من الثانوية الشرعية : التحق بكلية الشريعة بجامعة دمشق ، وذٰلك في عام ١٩٦٢م ، وتخرج فيها في عام ١٩٦٧م ، وكان ممن درَّسه بها من أصحاب الفضيلة العلماء ، كلٌّ من :

الأستاذ محمد المبارك ، والأستاذ مازن المبارك ، والدكتور مصطفى السباعي ، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، والدكتور أمين مصري ، وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ .

وكان من المشايخ الشباب آنذاك السادة العلماء : الدكتور محمد أديب الصالح ، والدكتور فوزي فيض الله ، والدكتور وهبة الزحيلي ، والدكتور فتحي الدريني ، رحمهم الله تعالىٰ جميعاً وأسكنهم فسيح جناته .

ولم تكن دراسته بجامعة دمشق انتظاماً ، بل كانت انتساباً ، يداوم فيها مدة قليلة ، ويعود لبلده حلب ، حيث اختاره شيخه الخصوصي الشيخ عبد الله سراج الدين مدرساً في مدرسته الشعبانية وهو في الثانية والعشرين من عمره ، فكان يَدْرُس ويدرِّس ، فيأخذ ويعطي ، وهٰذا من أهم أسباب قوته ونبوغه [١] .

---

(١) وسأتعرض لها إن شاء الله بمبحث خاص .

وهنا انتهت محطة سيدي الوالد الأكاديمية ، فلم يتابع مرحلة الدراسات العليا ، وأرجع ذٰلك لسببين اثنين :

أولاهما : لم تكن الدراسات العليا هي المهمة والأساسية في تلك الآونة ، بل كان مجرد العلم والإجازة من الشيوخ معترفاً به ومقدراً ، كحال شيخيه الخصوصيين ، فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، رحمهما الله تعالىٰ .

ثانيهما : تفرغه الشديد ، بل تفانيه بخدمة شيخه الشيخ عبد الله سراج الدين في مدرسته الشعبانية ، حيث كان يعيش لها وبها ، وفيها وإليها ، وقد يكون هٰذا هو السبب الرئيس الأول .

طلبه للعلم بالطريقة المشيخية :

وأقصد هنا « بالطريقة المشيخية » : ما كان عليه العلماء السابقون من دروس خاصة لطلبة خاصين ، يلتفون حول شيخهم ، جاثين على الركب ، كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، يتعلمون أدب العلم قبل العلم ، والتعامل مع الشيخ والكتاب قبل قراءة الكتاب ، فيقرؤون كتب أئمتنا الأصيلة : قراءة تمحيص وتحليل ، لا تمتد أيديهم إلىٰ مذكرات عصرية ، مختزلة اختزالاً ، أو ممسوخة مسخاً ، فيشامُّون أئمتهم مع مشايخهم ، فَتَعلُوا نفوسُهم ، وترتقي أرواحهم ، وينتقل إليهم هٰذا العلم ممزوجاً بالروح والأبوة ، فيجد مكانه سهلاً في نفوس طلبته ، ولهٰذا نجد

جلَّ أهل هـٰذه الطبقة يحفظون كلام مشايخهم حفظاً ، ويذكرونه حرفاً ، ويعرف هـٰذا كل من جرَّب ، ومن ذاق عرف .

أعود فأقول :

إن مما ساعد سيدي الوالد علىٰ سلوكه هـٰذه الطريقة : أن المشايخ المدرسين في المدرسة الشعبانية خاصة ، كانوا محافظين علىٰ هـٰذه الطريقة في الدرس محافظة تامة ، فكانوا ينتهجون بأبنائهم الطلبة نهج ما تعلموه : من طريقة الجلوس ، وكيفية الشرح ، واختيار الكتاب ، وإمساك الكتاب ، والأدب قبل ذٰلك ، وبعد ذٰلك ، وحين ذٰلك ، حتىٰ يخرجوا نبتاً طيباً ، يفيد نفسه ، ويعطي أمته ، ويتابع مسيرة علمائه : دقةً وتمحيصاً ، علماً وعملاً ، وشرحاً وتحقيقاً ممزوجاً بالروح ، محلىً بالأدب .

وأذكر من مشايخه الذين تلقىٰ عنهم العلم في المدرسة الشعبانية القديمة ، كلاً من السادة العلماء ، والأساتذة الفضلاء :

محمد زين العابدين جذبة ، قرأ عليه : الحديث والتوحيد .

محمد الحماد ، قرأ عليه : الحديث .

طاهر خير الله ، قرأ عليه : التفسير والخطابة .

عبد الله سراج الدين ، قرأ عليه : مصطلح الحديث ، والفقه الحنفي .

عبد الله خير الله ، قرأ عليه : الفقه الحنفي .

بكري رجب ، قرأ عليه : الفقه الحنفي ، والعروض .

محمد المعدِّل ، قرأ عليه : النحو .

سامي بصمه جي ، قرأ عليه : الفرائض والنحو .

أمين الله عيروض ، قرأ عليه : المنطق وأصول الفقه .

أحمد أبو صالح ، قرأ عليه : التوحيد .

عبد الفتاح حميدة الناصر ، قرأ عليه : التاريخ الإسلامي .

عبد الرحمٰن زين العابدين ، قرأ عليه : النحو .

أديب حسون ، قرأ عليه : الأخلاق .

نجيب خياطة ، قرأ عليه : الفرائض ، والتجويد .

محمد مهدي الكردي ، قرأ عليه : الفقه الحنفي .

مصطفىٰ مزراب ، قرأ عليه : الفقه الحنفي وأصول الفقه .

وكان من المشايخ الكبار في هٰذه المدرسة آنذاك ، ولم يقرأ عليهم ، بل استفاد منهم بالسؤال والاستفسار والصلة العلمية ، فضيلة الشيخ أسعد عِبَه جي ، ومحمد الغشيم ، وعبد الوهاب سكر ، ومحمد أبو الخير زين العابدين .

أما مشايخه في الثانوية الشرعية (الخسروية) ، فهم أصحاب الفضيلة :

عبد الوهاب سكر ، قرأ عليه : السيرة النبوية .

أبو الخير زين العابدين ، قرأ عليه : التوحيد ، وعلوم القرآن ، والتفسير .

محمد الملاح ، قرأ عليه : البلاغة ، وتاريخ التشريع .

محمد السلقيني ، قرأ عليه : الفقه الحنفي وأصول الفقه .

عبد الله سراج الدين ، قرأ عليه : الحديث ومصطلح الحديث والتفسير .

عبد الرحمٰن زين العابدين ، قرأ عليه : النحو .

نجيب خياطة ، قرأ عليه : التجويد والقرآن الكريم .

عمر يحيىٰ ، قرأ عليه : الأدب العربي .

ضياء الدين صابوني ، قرأ عليه : الأدب العربي .

رحم الله الجميع ، وألحقنا بهم علىٰ خير حال .

واستمراراً لهٰذه الطريقة وترسيخاً لها في نفسه ونفوس بعض النبغاء من زملائه ، ما قام به فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، بالتشاور مع زميله وشقيقه الروحي ، فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ ، حيث رأيا أن المدرسة الشعبانية القديمة أُغلقت ، وأُخذ الطلبة إلى الثانوية الشرعية الحكومية ، فبَعُد الطلبة عن طريقة العلماء القدامىٰ ، من الدرس والكتاب ، والمادة والمنهج ، فاختاروا عشرة من نوابغ طلابهم ، وهيئوا لهم كبار أساتذتهم من كل التخصصات ، واختاروا لهم الزمان والمكان .

أما الزمان ، فهو بعد فراغهم من مدرستهم الرسمية ، من العصر إلى المغرب ، وأما المكان ، فهو جامع الحَمَوي ، أحد

مساجد حلب القديمة ، كي يبقى المسجد في نفوسهم ، هو مركز انطلاقهم ، وجامعهم وجامعتهم ، يغمرهم بجَوِّه الإيماني ، وروحه الريحاني ، مع كتب أئمتهم القدامى المليئة بالخير والبركة ، والفائضة بروح الصدق والإخلاص ، هٰذه كلها عوامل تُغرس في النفس ، وتؤثر في الروح .

أما الأساتذة الذين تم اختيارهم ، فهم السادة العلماء :

١ ـ فضيلة الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين ، يدرس مادة التفسير ، كتاب « تفسير البيضاوي » ، يوم السبت .

٢ ـ فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، يدرس مادة الحديث ، كتاب « فيض القدير » ، يوم الأحد .

٣ ـ فضيلة الشيخ محمد السلقيني ، يدرس مادة الفقه الحنفي ، كتاب « الاختيار » ، يوم الاثنين .

٤ ـ فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، يدرس مادة الأصول ، كتاب « نسمات الأسحار » ، يوم الثلاثاء .

٥ ـ فضيلة الشيخ أحمد القلاش ، يدرس مادة النحو ، كتاب « أوضح المسالك » ، يوم الأربعاء .

٦ ـ فضيلة الشيخ محمد السلقيني ، يدرس مادة الفقه الحنفي ، كتاب « الاختيار » ، يوم الخميس .

وأما الطلبة الذين تم اختيارهم ، فهم السادة العلماء :

الشيخ محمد عوامة .

الشيخ زهير الناصر .

الشيخ عبد المجيد مَعَّاز .

الشيخ عبد الستار أبو غدة .

الشيخ عبد الحفيظ قلعجي .

الشيخ عبد المجيد قطان .

ولم أقف على الباقي .

وقد استمرت هٰذه الدروس الخاصة : سنة دراسية كاملة ، كانت هي النواة الأولىٰ لتأسيس فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله : جمعية التعليم الشرعي ، ثم مدرسة التعليم الشرعي ، أو ما عُرف باسم : المدرسة الشعبانية ، أدام الله بقاءها وعطاءها .

وأقول بعد هٰذا كله :

إن تضافر هٰذه الجهود كلها : من قوة المشايخ ، ونبوغ الطلبة ، ودقة انتقاء الكتب ، وصحة طريقة التعليم ، وحسن اختيار المكان ، مع توفيق الله أولاً وآخراً ، لا بد وأن تخرج لنا أفذاذ الأمة فكراً ، وأساطينها علماً ، ووجهتها فقهاً وتحقيقاً .

❋ ❋ ❋

نبوغه وأسبابه

مما لا شك فيه ، أن الله عز وجل يهيئ أناساً انتقاءً ، ويهيئ لهم ظروفاً وأسباباً ، يجعل منهم في المستقبل أنصاراً لدينه ، وأعمدة لشرعه ، على اختلاف التخصصات والفنون ، فيكمل استمرارية هٰذا الدين ، وتكون الحجة لله على العباد .

وقد تعرض سيدي الوالد إلىٰ نقاط هامة وعظيمة في كتابه الماتع النافع « معالم إرشادية لصناعة طالب العلم » تساعد في تكوين طالب العلم تكويناً صحيحاً ، وتنشئه تنشئة سوية ، يكون إن شاء الله تعالىٰ في مستقبله القريب عَلماً من أعلام أمته ، ووتداً من أوتادها العظام .

وإن الظروف والأسباب التي هيأها الله عز وجل ، وأكرم بها سيدي الوالد ـ بعد توفيقه له ـ ، أرىٰ أنها متعددة النواحي ، متشعبة الاتجاهات ، وسأعرض لها بشيء من الاختصار :

الظروف العائلية :

لقد أكرم الله سيدي الوالد بأبوين كريمين ، يقدران العلم والعلماء ، ويعرفان منزلة أهل الفضل والكرماء ، فوالده هُوَ مَنْ هُو في حيِّه ، يتقلب بين أهل العلم والفضل ، والفتيا والفقه ، وقد لاحظ نجابة هٰذا الابن ، وحرصه على العلم والتعلم ، والاستقامة والتدين ، ففرغه من العمل والتكسب ، ولم يستعن به في مهنته

كباقي إخوته ، بل وَهَبه للعلم الشرعي تماماً ، صيفاً وشتاءً ، أيام الدراسة ، وأيام العطل ، فحصل الاستغناء من جهة الوالد ، وهـٰذا الاستغناء في تلك الأيام والظروف الصعبة يعتبر تضحية ما بعدها تضحية .

أما الوالدة ، فكانت ترىٰ ضيق ذات اليد في زوجها ، وحاجته إلى ابنها ليساعده في عمله ورزقه ، فضلاً عن أن يفرغه للدراسة والطلب ، وهـٰذا يستدعي أجوراً ومصاريف يصعب علىٰ مثله ، فتعلمت الحياكة ، وعملت بها في بيتها ، تجاهد في بيتها وتربية أبنائها ، وفي مهنتها كي تصرف هي علىٰ ولدها التي رأت فيه علامات النبوغ والنجابة ، والذكاء والفطنة ، فأنجبته لنا مرتين ، مرة من حين ولادته ، ومرة حين تَكَفُّلِه ، فأقر الله عينها به ، ولم يضيع لها تعباً ، بل أمدَّ في عمرها إلىٰ أن رأته وهو من هو في بلدته ، هو من هو في غربته ، عالماً متمكناً ، وعابداً متزهِّداً ، يشار إليه بالبنان ، وسارت بذكره الألسن والركبان ، فرحمها الله رحمة الأبرار ، وجزاها خير ما يجزي والدة عن ولدها في دار القرار .

وتبعاً لهـٰذا كله ، فقد تفرغت عنه أسرته ، وتفرغ هو عن أسرته ، فحصل له التفرغ من هـٰذه الجهة ، فأصبح وقته في الدراسة والتأسيس ، والطلب والتحصيل ، يعيش في العلم ، وللعلم ، ومع العلم ، فارغ البال ، مكفي الحال ، وهـٰذا من أهم أسباب نبوغ طالب العلم .

ثم إن هناك أمراً آخر يتبع هٰذه الظروف العائلية ، وهو بساطة البيئة التي عاش بها سيدي الوالد ، فلم تكن تلك المدنية قد دخلت واستشرت ، فكان أكثر الناس على الصفاء والفطرة ، مع التدين الذاتي المتوارث ، وكل هٰذا مما يساعد على العلم ، والطلب له ، والتفرغ فيه .

ظروف التلقي والتدرج :

إن ظروف تلقي العلم ورضاعة المعلومات التي حظي بها سيدي الوالد من طريقةٍ وإلقاء ، وروحٍ وعطاء ، من مشايخ متمكنين ، وأساتذة نابهين ، مع تدرج في التلقي والتعلم ، وترقٍّ في الكتب والفهم والتفهم ، حَرِية بها أن تُخْرج لنا أناساً متمكنين علماً ، متدرجين فهماً ، متأسسين فقهاً ، لا ترىٰ منهم الندرة ، ولا يعرفهم الشذوذ .

قرأ سيدي الوالد العلوم الشرعية قراءة مشيخية ، تلقاها عن أهلها ، متدرجة في سلكها ، الأول فالأول ، فشامَّ أكابرها ، واستنشق عبق أصول كتبها ، فهان عليه صعبها ، وذلَّ له عسيرها ، فرقىٰ وارتقىٰ ، وعلا واستعلىٰ ، وكم وكم كنت أسمع منه حفظه الله ما يؤكد علىٰ أهمية التلقي والتدرج ، وأنَّ بانعدامها : انعدام حقيقة العلم والعلماء ، وخروج الضُّلال والشذاذ ، ويضرب لنا الأمثلة بمن نعرف من حولنا ، وهٰذا ما يريده منا الأعداء .

وأذكر مرة أني كنت في مجلسٍ بين سيدي الوالد وشيخنا

العلامة الشيخ أحمد القلاش رحمه الله تعالىٰ ، فجاء ذكر أحد المشايخ الكبار ، المُشار إليهم بالبنان ، فنقلا عنه كلمة قالها ، وتفوه بها ، ولم تكن سديدة نحوياً ، ثم قالا معاً : هٰذا لأنه لم يقرأ « الآجرومية » ، فتعجبت من مقولتهما تعجباً شديداً ، واستفدت منهما استفادة بالغة ، وعرفت أن الإنسان مهما بلغ وارتقى اسمه ، وذاع وشاع ذكره : إن لم يتدرج في العلم ، فإنه لا بد سيُعرَفُ أمرُه ، ولا محالةَ سيتضح وهمُه ، نسأل الله العافية .

الظروف الذاتية :

لقد أمدَّ الله عز وجل سيدي الوالد بأسباب حسيّة ، وهيأ له ظروفاً ذاتية وهبية ، ساعدته على التقدم في العلم ، وسرعة التحصيل فيه ، مع الفهم والتعمق ، والنقد والتحقق ، ويمكن أن ألخص هٰذه الأسباب بنقاط عدة :

أ ـ ذاكرته العجيبة :

لقد حبا الله عز وجل سيدي الوالد ذاكرة عجيبة ، وحافظة خارقة فريدة ، يعرفها فيه كلُّ من جالسه ، ويُبهرُ بها كلُّ من تتلمذ عليه وخالطه ، فتراه يكثر في مجالسه العامة من قصص السلف وأخبارهم ، وحكاياتهم ونوادرهم ، وكأنما يقرؤها من كتاب ، أو يطالعها من صحيفة ، وكم وكم يذكر لنا أن هٰذه القصة قرأها أيام الطلب ، أو قبله ، أو بعده ، ولم يمرَّ عليها ثانية ، فيكون قد قرأها من خمسين سنة ، أو ستين سنة ، وإذا بحثت عنها

أو رجعت إليها ، تراها كما ذكرها لك ، بألفاظ شواهدها ، لا بمعناها .

ومثل هٰذا تماماً عندما تسأله عن مسألة أو قصة أو ذكر لرجل ، فإنه يرشدك إلى الكتاب المذكورة فيه تلك القصة أو المسألة ، أو ترجمة الرجل مع ذكر خلاصة الأقوال فيه ، وكأنه محضِّرٌ لك الجواب ، عارف منك السؤال .

كما أن للشعر في ذاكرته نصيباً ، فإن المُجالس له يراه يتطرق لبعض الأشعار ـ أو ما يسمىٰ بشعر المناسبات والشواهد ـ ، مع حفظ قائليها غالباً ، وهو ذوَّاق في اختيار الشعر وحفظه ، وضبطه ، ووزنه ، وقد استفاد هٰذا الأمر من فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وفضيلة الشيخ أحمد القلاش رحمهما الله تعالىٰ .

وبمناسبة ذكر الشعر ، فإنه معجبٌ جداً بشعر الأستاذ علي الجارم ، ويسميه ـ كما يسميه الشيخ أحمد شاكر ـ أمير الشعراء .

والمجالسُ له أيضاً يراه يكثر جداً من قصص مشايخه ـ وخاصة شيخيه الجليلين : فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ ، ويذكر لك ألفاظهم مع إشاراتهم ، وتواريخ الحوادث التي مرت تلك القصة معهم ، ولقد سمعته مرات ومرات يقول : « **أنا أحفظ ألفاظ مشايخي** » ، وما هٰذا إلا لحبّه لهم ، بل لتشبعه بمحبتهم ، وسريان ذٰلك في شحمه ولحمه ، وعروقه ودمه .

أما حفظه للتواريخ ووفيات الأئمة ، فهٰذا مما يُدهش العقل ،

ويحير القلب ، فلا أذكر أبداً أنه مرَّ ذكر إمامٍ من أئمة الدين السابقين أو اللاحقين ، إلا ويعرف تاريخ وفاته ، إن لم يكن مع ميلاده أيضاً ، وهٰذا أمر عُرف عنه من أيام الطلب ، فكان زملاؤه يسمونه بـ (دائرة النُّفُوس) ، وهو ما يسمىٰ في عصرنا الحالي بـ (الأحوال المدنية) ؛ من كثرة حفظه لتواريخ وفيات الأئمة .

وأذكر أني سمعت : أنه لما كان في سنة التخرج من جامعة دمشق ، وكان موعد اختبار مادة القرآن الكريم عند فضيلة الشيخ الدكتور محمد أديب الصالح ، متعه الله بتمام الصحة والعافية ، وكان الاختبار شفوياً ، يشمل التسميع مع بعض المعلومات حول التفسير والمفسرين ، فكان بجانب الوالد أحد زملائه من حلب يختبران من فضيلة الشيخ أديب الصالح ، فلما كان وقت إجابة الوالد ، كان يجاوب مع ذكر وفيات الأئمة ، فلما أكثر ظن الشيخ حفظه الله تعالىٰ أن الوالد يخبئ ورقة فيها تواريخ وفيات الأئمة ، فصار يفتش وينظر ، فقال له زميل الوالد : إن هٰذا أمر معروف ومشهور عن سيدي الوالد ، فتعجب الشيخ جداً وشجّعه .

وأكثر من هٰذا وأعجب من قصص تدهش ، وأخبار تحيِّر في قوة ذاكرته ، وعظمة حافظته ، ومع هٰذا تراه دائماً يشتكي من ضعف الذاكرة ، وقلة الحفظ ، ويتحسر ويسترجع !! .

ب ـ النهم بالقراءة :

لم يكن سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ بالرجل الطبيعي في حبّ القراءة ، بل كان نهماً بها ، عاشقاً لها ، فكان يكثر القراءة

جداً ، وخاصة أيام الطلب ، وسنَّ الشباب ، فكان يقرأ الكتاب كاملاً ويقيّد ما فيه من فوائد علىٰ غلافه ، لسهولة الرجوع إليها وقت الحاجة ، ولهـٰذا قلَّ ـ أو ندر ـ أن تجد كتاباً من كتبه ـ التي تعدُّ بالآلاف ـ وليس علىٰ غلاف أحد منها فوائد وفرائد ، أشار إليها وإلىٰ مواضع ذكرها داخل الكتاب .

ولهـٰذا نجد عنده بعض الكتب قال لي عنها : « لا أبيعها بملك الدنيا » ، وقال أخرىٰ : « هي أغلىٰ عندي من روحي » ، ومن هـٰذه الكتب ، نسخته الخاصة من « التاريخ الكبير » للإمام البخاري ، و« الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم ، و« فتح الباري » ، و« الإصابة » كلاهما للحافظ ابن حجر ، فإن هـٰذه الكتب مليئة مكتظة بالفوائد والنوادر ، والتصحيحات ، والتعليقات ، وغيرها الكثير الكثير ، والحمد لله .

أعود إلىٰ حبّه للقراءة وعشقه لها :

إن المزية الكبرىٰ ، والفضيلة العظمى التي أكرم الله بها سيدي الوالد ؛ أن مشايخه رحمهم الله تعالىٰ كانوا يراعونه ويلاحظونه ، حيث عرفوا فيه هـٰذا الحب والنهم ، فكانوا يوجهونه لقراءة ما يفيده في كل مرحلة ، من مراحل عمره ، فيرشدونه إلىٰ أسماء الكتب أو المؤلفين ويدلُّونه ، ويعيرونه ما ليس عنده ويهدونه ، فلم تكن قراءته ـ خاصة أيام الطلب ـ قراءة عشوائية ، أو غير مفيدة ولا هادفة ، بل كانت قراءة علمية أدبية فكرية متدرجة ، ولهـٰذا كان تأسيسه متيناً ، وعلمه رصيناً ، وفكره نيّراً رزيناً .

ولذكري إهداء مشايخه له بعض الكتب : أذكر أن من نوادر ما أهدىٰ فضيلة شيخه الأجل الشيخ عبد الفتاح لسيدي الوالد الطبعة الأولىٰ من كتاب « الأعلام » للأستاذ الزركلي ، في ثلاث مجلدات ، وعليه تعليقات وتصحيحات العلامة الكوثري ، رحم الله الجميع ، وهي نسخة نادرة إكليلية نفيسة .

ج ـ القراءة مع الفهم :

إن القراءة مهما كثرت أوراقها وتشعبت ، ومهما عَلَت مادتها وتنوعت ، إن لم يكن معها تيقظ وتدبر ، وتفهم وتعمق ، فإنها لا تعني شيئاً ولا تنفع ، بل تضر العقل وتغش النفس ، والقراءة القليلة ـ مع ما ذكرت ـ أكملُ لصاحبها وأنفع ، وأحفظ لطالبها وأمتع ، فكيف إذا أكرم الله شخصاً بالنهم مع التدبر ، والعشق مع التيقظ ، أضف إلىٰ هٰذا : اللسان السؤول ، والقلب العقول ، والذاكرة العجيبة .

ومن أمثلة مراجعته لمشايخه فيما يقرأ ، ما ذكره حفظه الله تعالىٰ في كتابه « معالم إرشادية » من قصة سبب إخراج علماء سمرقند للإمام البخاري ، وعندها قال له فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين : « **لا تصدق كلَّ ما تَقرأ** » ، فقال سيدي الوالد معلقاً عليها : « **فكانت لي درساً عظيماً ، ومنهجاً قوياً قويماً ، لا يُقدر قدره** »[1] .

---

(١) تنظر القصة في : « معالم إرشادية لصناعة طالب العلم » ص ٣٩٧ .

وهٰكذا يكون الطلبة ، وهٰكذا يكون المشايخ .

ثم إنَّ كثرةَ ما علَّق ونبَّه علىٰ أغلفة الكتب والمجلدات : لهو أدلُّ دليل علىٰ ما ذكرت من قراءة الفهم والتعمق والتيقظ ، فمن يرىٰ كثرة ما كُتب علىٰ كثرة ما قُرِئ ، يدرك تمام الإدراك أن هٰذه طاقة لها مدد خاص ، وملاحظة خاصة ، وعناية خاصة ، وخاصة عندما يرشدك إلىٰ فائدة في كتاب قديم ، أكلتها السنون ، وتعاقبت عليها الأعوام والأعمار ، ويقول لك : « ابحث عنها على الغلاف ، فأنا كتبتها من كذا وكذا » ، ويحصل أحياناً أني أذهب لأرىٰ ما دلَّني عليه ، فلا أجد ، فأراجعه وأقول : بحثت فلم أجد ، فلا يوافقني لتأكده وتيقنه ، ويطلب مني إحضار الكتاب ، فأحضره ، فنراها بين أسطر فوائد الغلاف ، مكتوبة بقلم رصاص ، كادت تمحوها الأيام ، وتغيرها الأعوام ، فأعجب وأتعجب .

ولعلَّ أحدنا ينشط فيعيد هٰذه الفرائد تحت أنظار سيدي الوالد ، أطال الله عمره بتمام الصحة والعافية ، فتبقىٰ مسالك للطلاب ، ومنافع للأجيال ، ويقولون : هٰذه آثارهم تدل عليهم .

د ـ الحرقة علىٰ طلب العلم :

إن الحرص علىٰ طلب العلم ـ بل الحرقة عليه ـ ، وحب الازدياد فيه دوماً وأبداً ، صباحاً ومساءً ، هي من أهم المنح التي أكرم الله تعالىٰ بها سيدي الوالد ، وغرسها به ، فنمت فيه وقتاً ، وكبرت معه سناً .

ولهـٰذا تراه يتعجب أشدَّ التعجب إن سمع عن طالب علم يمر عليه وقت لم يطالع فيه ، أو يزدد به علماً ، ويردد علينا دائماً قول الإمام أبي يوسف القاضي رحمه الله تعالى : « العلم شيء لا يعطيك بعضَه حتىٰ تعطيه كلَّك ، وأنت إذا أعطيته كلَّك من إعطائه البعض علىٰ غرر » .

وكم كان يتخوَّف علينا ـ حفظه الله ـ من البعد عن العلم وطلبه لأجل الدنيا ولقمة العيش ، وكان يقول لنا بكثرة : « **يا بَنيَّ ، لو تسفُّون التراب سفّاً لا تتركوا طلب العلم** » .

وما هـٰذا وكل هـٰذا إلا لحرقته علىٰ طلب العلم ، ورؤيته أن هـٰذه منزلة لا تعدلها أي منزلة دنيوية ، ويغرس فينا معنى اسم كتاب العلامة ابن القيم « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ، وأن المفتي المُوقِّع عقب فتواه ، ما هو إلا توقيع ينوب فيه عن رب العالمين ، وأيُّ منزلة تعلو أو تدنو من هـٰذه المنزلة ، منزلة الخلافة عن الله ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هـ ـ اغتنامه للوقت :

أما اغتنام الوقت ومحاسبة النفس عليه ، فحدِّث عن هـٰذا ولا حرج ، وهو أمر معروف عنه ، ومشهور به ، وأقول كلمة ـ أحاسب عليها أمام الله تعالىٰ ـ : أني طيلة هـٰذه الأيام مع سيدي الوالد ، وأنا المصاحب له سفراً وحضراً ، وصحةً ومرضاً ، لا أذكر أبداً أني رأيت دقائق تمر عليه وتحسب من عمره بدون أن يكون بيده كتاب ، أو ورقة وقلم ، أو مناقشة في مسائل علمية ، وإن

لم يتيسر هٰذا أو بعضه ، فالسبحة في يده يستغفر الله أو يصلي علىٰ رسوله الكريم صلوات ربي وسلاماته عليه .

وهٰذا دأبه ودأب مشايخه من قبله الذين أثَّروا بحياته ، وتكوين شخصيته ، وممن يضرب المثل به في حرصه على الوقت جداً فضيلة العلامة الشيخ أحمد القلاش رحمه الله تعالى ، الذي قال مرة للوالد : « **أنا لا آسفُ علىٰ ساعة من عمري** » ، وهٰذه منزلة ما بعدها منزلة .

وناهيك بشيخه الأجل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ، وهو صاحب « قيمة الزمن عند العلماء » ، فكيف تكون قيمة الوقت عنده ! ، ومرة كان سيدي الوالد مع مولانا الشيخ عبد الفتاح في بيت الله العتيق ، وأراد مولانا الشيخ الانصراف ، فودَّع الوالد ، ثم انتبه الشيخ أن الوالد سيبقىٰ هٰكذا بدون شيخه ولا معه كتاب ، فعاتبه وقال له ـ بالعامية ـ : « **أين الكتاب يا شيخ محمد** ؟! » فاعتذر الوالد من الشيخ رحمه الله ، وأجزل له المثوبة علىٰ حسن الملاحظة والتربية ، مع أن سيدي الوالد قال لي معقباً : « أنا لا أغفل عن هٰذا إن شاء الله ، ولٰكن بقي عليَّ وردٌ لم أستطع قراءته لجلوسي مع الشيخ رحمه الله ، فأنا أرغب بقراءته أمام الكعبة المطهرة » ، فلهٰذا بقي الوالد في الحرم ، فاعجب من الشيخ وملاحظته وتربيته ، أو اعجب من التلميذ وحرصه واستغلاله .

أما ما رأيت من اغتنامه الوقت في الأسفار ، فهو مدرسة

متكاملة في اغتنام العمر ، واستغلال الوقت ، وكان شعاره دائماً : « الوقت كالسيف ، إن لم تقطعه قطعك » ، فكان هو يسابق الوقت ويقطعه باستغلاله بالقراءة والكتابة ، بدل أن يسبقه الوقت ويقطعه ، فعلىٰ سبيل المثال ، أذكر لا الحصر :

كنا في صيف ١٤٣٢هـ في تركيا في جبل (ألوضا) في مزرعة مولانا الشيخ محمود أفندي ، حفظه الله بخير وعافية ، وهي منطقة جميلة جداً بطبيعتها ، مشهورة بهوائها العليل ، وجوِّها النقي ، وقد جلسنا بها ما يقارب الخمسة عشر يوماً ، لم يخرج الوالد من البيت ولا مرّة واحدة أبداً ، وكنَّا نلح عليه في الخروج للتنزه ، كما كان الإخوة الكرام من جماعة مولانا الشيخ يلحون عليَّ جداً في خروج الوالد ، ولٰكنه كان يرفض تماماً لانعكافه على القراءة ، فكانت أوراقه وتجاربه الطباعية من كتاب « تدريب الراوي » معه ، يقرأ بها ويصحح ، ويعدل وينقح ، وهٰذا في الأوقات التي أكون أنا مشغولاً بها أو غير موجود ، فإذا وُجِدت فإننا فوراً ـ مع السيدة الوالدة وعائلتي ـ نقرأ درس « صحيح البخاري » ، ويمتد بنا الساعتين والثلاثة لا يعرف فيها الكلل ولا الملل ، بل كنا نحن الذين نقف ونطلب ذٰلك منه .

أما في صيف ١٤٣٣هـ فكانت زيارتنا إلىٰ جنوب إفريقية ـ وجمالها لا يخفىٰ ـ ، فقد كانت تصاحبنا فيها الكتب ، فقرأت عليه في مُدُنها الثلاثة : (جوهانسبرغ) ، و(دربن) ، و(كيب تون) : « مقالات الكوثري » ، وكذٰلك كانت هٰذه القراءة في

أوقات وجودي ، أما في غير أوقات وجودي ، فكانت أوراق كتابه العظيم « معالم إرشادية » معه يصحح بها ويعدل ، ويزيد وينقص وينقح .

بل وقع في يده في مدينة (كيب تون) كتاب كان يصحبه ابني محمد اسمه : « ألف اختراع واختراع » وهو كتاب كبير جدير أن يقرأه كلُّ مثقف مسلم ؛ كي يرىٰ فيه عظمة علمائنا المسلمين المخترعين ، فرآه سيدي الوالد مع ابني محمداً ، فأُعجب به جداً ، وقرأه في (كيب تون) كاملاً ، قراءة تدقيق وملاحظة ، مع تفكر وتحسُّر .

بل لما كنا في قرية (وايت ريفر) وكان بجانبنا حديقة حيوان كبرىٰ مفتوحة ، يأتي إليها السوَّاح والزوَّار من أقطار الأرض : ألحَّ المشايخ علىٰ حضرة الوالد أن يذهبوا به إليها ، فوافق علىٰ مضاضة لأجل إلحاحهم ، وأذكر أنه قال لي : أنا ما لي ولهٰذه الأشياء ، فأخذوا معه في السيارة مولانا المفتي الأكبر لجنوب إفريقيا الشيخ رضاء الحق حفظه الله تعالىٰ ، ليؤانسه في طريقه ، فكانت الأحاديث العلمية ، والمباحثات الحديثية والفقهية وحتى الأدبية طيلة الطريق ، حتىٰ سجَّلها الإخوة وطبعوها لندرتها ، وبعد انتهاء الرحلة قال لي الدليل : كم رافقت من مشايخ العرب ، لم أرَ شيخاً كهٰذا الشيخ ، لم يلتفت إلىٰ ما ذهبنا إليه ولا نظرة ، بل كأنه لم يرَ شيئاً ، إنما كان انشغاله أجمع بمحادثة مولانا رضاء الحق بالمسائل العلمية .

وهٰكذا كان حضرة سيدي الوالد في كل أسفاره ورحلاته .

بل أكثر من هٰذا ، حين كنا سفراً من جنوب إفريقية إلىٰ ماليزيا ، مروراً بالإمارات ، قرأت عليه ـ ونحن في الطائرة ـ قسماً من « المقالات » ، وبعض المباحث من كتاب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » لفضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ ، ثم عند انتهائي من القراءة تراه يُخرج سبحته أو مصحفه ، فهو يتقلب من عبادة إلىٰ عبادة ، ومن علم إلىٰ علم .

وفي (كوالا لمبور) أيضاً أكرمني الله ، فقرأت عليه تتمة « المقالات » ، وبعض المباحث من « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، ولم يخرج معنا أبداً إلىٰ أي مكان للنزهة ، أو الاستجمام ، إنما كان خروجه من الفندق فقط لمحاضرات ، أو زيارات لبعض الجامعات ، ودور الإفتاء ، ومجالس العلماء .

وهٰكذا أوقاته كلها ، تتقلب في القراءة والاستفادة ، والعلم والتعليم ، أو الذكر وقراءة القرآن ، ويتحسَّر أشد الحسرة إن ضاع شيء منها سدىً ، متمثلاً قول القائل :

أليس من الخسران أن ليالياً تمر بلا نفعٍ وتُحسَب من عمري

ولهٰذا كتب ورقة صغيرة وضعها علىٰ باب مكتبه ، يعتذر فيها عن استقبال المحبين ، الذين يرتادون مكتبه ليغرفوا من علمه ونصحه ، وأدبه وعقله ، ولٰكن رأىٰ أن الواجبات عليه

أكثر من الأوقات ، والمسؤوليات أغلىٰ من المجاملات ، فكتب : « **نعتذر ، العمر هو الوقت** » .

٤ ـ الظروف المحيطة به :

إن الظروف المحيطة التي تحيط بالطالب تساعد مساعدة كبيرة في إنجاحه ورفعته ، أو إسقاطه وانعدامه ، فمن هيأ الله له ظروفاً تحيط به تساعده في الترقي في الطلب ـ كتوفر الكتب ، ووجود الأصدقاء ، مع التفرغ وتهيؤ المكان . . . وغير ذٰلك ـ ، ليس كمن لم يهيأ له شيء من هٰذه الظروف ، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأهم هٰذه الظروف :

أ ـ ملاحظة مشايخه له :

لقد أكرم الله سيدي الوالد بمشايخ كانوا له كالأب الرحيم الشفوق ، والأستاذ الملاحظ العطوف ، فكانوا يتابعونه من أيامه الأولىٰ عندما لاحظوا فيه أمارات النباهة والنجابة ، كي لا يستغله أهل الأهواء ، ولا يستدرجه أرباب الانتماءات ، وكان لفضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ـ في مدرسته ـ ، وفضيلة الشيخ محمد السلقيني ـ في حيه ـ ، الفضل الأكبر في أول مراحل طلبه ، وبدء ظهوره ونشأته ، فكان في الصف الأول في الشعبانية مِرسال تبليغ السلام بين هٰذين الشيخين ، كي لا يُخرِجوه عن غيرهما ، فبقيت العلاقة منحصرة بينه وبينهما ، فلازم في حيه الشيخ محمداً

السلقيني ملازمة تامة ، فكان يلاحظه فيه ، ولازم في مدرسته الشيخ عبد الله سراج الدين ملازمة تامة ، فكان يلاحظه فيها ، وكان يخرج معه كل يوم من المدرسة ، فيرافقه ماشياً حتىٰ يصلا إلىٰ بيت شيخه فيودعه الوالد ، ثم يذهب إلىٰ بيته ، وهٰذا كان من سيدي الوالد كل يوم ، يرافق شيخه ، فيرشده ويعلمه ، ويدلُّه وينصحه ، حتىٰ كان يراقبه مع من يمشي ، فيوافقه علىٰ فلان ، ويحذِّره من آخر ، وهٰذا من أهم مهام الأستاذ المربي .

كما أن القصة التي ذكرها سيدي الوالد في كتابه « معالم إرشادية » من كيفية إمساك الطالب لكتابه ، يدل دلالة واضحة علىٰ ملاحظة مشايخه لأعماله ، وتربيتهم لدقائق أفعاله .

وهٰكذا شيخه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله ، حيث كانت ملاحظاته له علمية ، تربوية ، فكرية ، مباشرة أو غير مباشرة ، وسأتعرض لمثال منها في بحث « وقفات تربوية أثَّرت في حياته » إن شاء الله تعالىٰ .

ب ـ الأصدقاء :

إن انتقاء الأصدقاء واختيارهم ـ وخاصة في مرحلة الطلب ـ أمر هام ، ومهم جداً لطالب العلم ، فهم الذي يسارُّونه ويُسيِّرونه ، وهم الذين يبنونه أو يهدمونه ، ومهما اجتهد الأساتذة في دروسهم ، والمشايخ في مدارسهم ، إن لم يكرم الله تلامذتهم بأصدقاء جيّدين ، جادين مجدين ، يعاونوهم البناء ،

ويساعدوهم في العطاء ، فإن جهادهم يضيع دنيوياً سدىً ، وتعبهم يكون هدراً .

متىٰ يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

لقد أكرم الله سيدي الوالد بكوكبة مباركة من الأصدقاء ، كانوا خير عونٍ له ، وكان خير عونٍ لهم ، شدَّ كلٌّ منهم عضد أخيه ، فأفاد واستفاد ، وأنار لأخيه الدرب واستنار ، شجع كلٌّ منهم أخاه ، فتنافسوا تنافس الشرفاء ، وتباروا تباري النجباء ، بملاحظة مشايخهم ، ومتابعة مربّيهم ، فكانوا يحددون كتاباً لقراءته ، ويحددون وقتاً لمدارسته ، ومناقشة مسائله ، وهٰكذا الكتاب يتلوه الكتاب ، وفوائد تتلوها فوائد ، دروس من الصبح إلى الظهر مع الأساتذة ، ومراجعة من العصر إلى المغرب مع الطلبة ، وتنافس بعدها مع الأصدقاء ، ومتابعة مع كل هٰذا ورقابة من المشايخ الفضلاء .

فقل لي بربّك : كيف لا تأتي الفوائد وترسخ المعلومات ، وكيف لا تذهب المشاكل وتحل المعضلات ؟!

وإن خير من يذكر في هٰذا الوقت ـ وقت أول الطلب ـ صديقه القديم ، العلامة الفقيه ، الألمعي اللوذعي ، فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الستار أبو غدة ، حفظه الله تعالىٰ بخير وعافية ، حيث كانا توءم روحين ، بل روحاً في جسدين ، فاستفاد كلٌّ منهما من صاحبه ، وأفاد كلٌّ منهما صاحبه ، تغذَّيا العلم سوياً ، واستنشقا

الروح معاً ، فلا ينسىٰ ذاك صاحبه ، ولا ينسىٰ هـٰذا أخاه .

وإن من الأصدقاء والخلان ، والزملاء والإخوان الذين سعد سيدي الوالد بأُخوَّتهم ، واستفاد من صداقتهم في مراحل الطلب وبعدها ، السادة العلماء :

الشيخ زهير الناصر ، والشيخ عبد المجيد قطان ، والدكتور محمد أبو الفتح البيانوني ، والشيخ محمد عثمان جمال ، وغيرهم الكثير رحم الله من انتقل ، وحفظ من بقي .

ج ـ غرفة السَّيَّافيَّة :

السيافية : اسم لمسجد لطيفٍ جداً ، يقع بجانب المدرسة الشعبانية ، يحتوي علىٰ مصلىً وستّ غرف تُعطَىٰ لطلاب العلم للتفرغ فيها والمذاكرة ، وكان لسيدي الوالد غرفة فيها بالاشتراك مع أخيه الحميم ، الشيخ عبد الستار أبو غدة حفظه الله تعالىٰ ، من عام (١٣٧٧) إلىٰ عام (١٣٨٥) .

وكانت هـٰذه الغرفة علىٰ بساطتها وصغرها بمثابة المنتدى العلمي والأدبي لهما ولزملائهما الذين يرتادون إليهما دوماً ، بل حتىٰ لبعض مشايخهما الذين يلاحظونهما .

ولهـٰذه الغرفة في نفس سيدي الوالد ذكريات جميلة ، ومكانة عالية ، فتراه يحنُّ لأيامها ، ويترنم بلحظاتها ، ويتحسَّر علىٰ فواتها ، فهي مرتع صباه العلمي ، ودار تكوينه الفكري ، بها كانت الدروس والمذاكرة ، والاستزادة والمنافسة ، أيام جنانية ، ونفوس

ملائكية ، تنام مع الكتاب ، وتصحو مع العلم ، مع بساطة في المعيشة ، وزهدٍ في البيئة ، وفراغ بال ، وهدوء خاطر ، كلَّ هٰذه أسباب تدعم بعضها ، وتشد من أزرها في تكوين طالب علم بارع ، وعالم نافع ماتع .

د ـ مكتبة الشيخ باسم عجم :

إن وفرة الكتب العلمية بين يدي طالب العلم سلاح ذو حدَّين ، فإن استغلها الطالب وأحسن استخدامها : بالانتقاء والتدرج ، نجح وفلح ، وإن لم يوفَّق ـ لا سمح الله ـ ، فقد خاب وخسر ، وضلَّ وشذَّ ، ولا يأتي هٰذا إلا بتوفيق الله أولاً ، ثم بإرشاد الأساتذة المربِّين ، والمشايخ الناصحين ، لتلامذتهم وطلابهم ، وخوفهم الشديد عليهم من هٰذا الانزلاق العلمي الخطير ، والتردِّي المهين .

إن مكتبة الشيخ باسم عجم ، ووجودها بين يدي والدي والشيخ عبد الستار أبو غدة ، وملاحظة مربيهما ، فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة لهما ، فيما يقرآن منها ويتذاكران ، ويطالعان فيها ويستفيدان ، كان من العوامل المهمة ، والنواحي الإيجابية العالية في ثقافتهما العلمية الشرعية ، والفكرية والأدبية عامة ، مع مسيرتهما العملية خاصة .

والشيخ باسم عجم هو أحد زملاء فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ ، في طلب العلم ، كان محباً للكتب ،

جمَّاعاً لها ، حسب إمكانيات وطباعة تلك الأيام ، باذلاً نفعها ، مسبِّلاً خيرها ، لمن يأمن من الأساتذة ومن الطلبة ، فوضعها بالسيافية تحت إشراف وملاحظة زميله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ، وفوَّض الشيخ عبد الفتاح رحمه الله الاستفادة منها إلى ابن أخيه الشيخ عبد الستار ، فاستفاد منها هو والوالد أيما استفادة ، وتضلَّعا منها أيما تضلع .

ومن نوادر ما كان فيها : نسخة من « نصب الراية » ، عالية التجليد والورق جداً ، وكان الوالد متعلقاً بها كثيراً جداً ، فجاء عالِم واشتراها من الشيخ باسم عجم ، فحزن الوالد عليها حزناً عميقاً ، وأثَّر ذٰلك في نفسه ، فبلغ الخبر فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، فأرسل له نسخة الكوثري من « نصب الراية » ، وعليها تعليقاته ـ أي الكوثري ـ فبدَّله الله خيراً مما أسف ، وعوَّضه خيراً مما ذهب .

ومن نوادرها أيضاً في تلك الأيام مما يذكره الوالد الآن : مجلدات من « تهذيب » ابن عساكر لعبد القادر بدران ، و« نفح الطيب » الطبعة القديمة الأولىٰ .

هـ ـ تشجيع مشايخه له :

إن إعطاء الثقة للطالب والتشجيع له من أساتذته وشيوخه ، ومربيه ومعلميه ، من الأمور المهمة ، والعوامل الأكيدة ، التي تؤثِّر في نفسية الطالب ، فتشحذ همته ، وتشد عزمه ، وتقوي عزيمته ، في المضي قُدماً في سيره ، والإسراع والهرولة في

مسيرته ، نحو الكمال والإتقان ، والتفنن في العلوم والارتقاء ، وهـٰذا من أهم أسباب الإبداع ، وأقوىٰ سبل الابتكار ، وهو ما كان المشايخ يمشون عليه ويربون ، ويُنشِّئون ويُعلِّمون ، فمما أذكره في هـٰذه المناسبة :

كان لسيدي الوالد درس في التفسير مع بعض أصحابه ومحبيه ، من أصحاب الاختصاصات الدنيوية ، فكان الدرس مرة عند قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا ﴾ ، وبحث الوالد جداً عن تفسير لحرف الكاف في قوله تعالىٰ : ﴿ كَمَا ﴾ فلم يجد جواباً شافياً ـ عدا عما ذكره أئمة التفسير ـ فرأىٰ حضرة الوالد ، أنه ينطبق عليها هنا معنىٰ وإعراب : كاف المبادرة ، ورأىٰ فيها معنىً جميلاً ، فعرض هـٰذا الفهم علىٰ شيخه الشيخ عبد الله سراج الدين ـ وهو إمام في هـٰذا الفن ـ فسُرَّ بهـٰذا الفهم جداً ، وأرسل له في اليوم التالي ١٠٠ ليرة سورية .

و ـ محبته لشيوخه :

إن محبة الطالب لشيوخه الخصوصيّين تُعدُّ ـ بلا شك ـ من أسباب نبوغه علمياً ، ودواعي نجاحه عملياً ، فتراه يتكلم بكلامهم ، ويتلفظ بألفاظهم ، ويتحرك بإشاراتهم ، فهو بمحبته لهم ، وَرِث هـٰذا عنهم ، حالاً ومقالاً ، روحاً وذاتاً ، حسّاً ومعنىً ، ومن هم إلا وُرَّاث النبوة ، فالتشبه بهم تشبُّه بأصلهم .

وإن محبة سيدي الوالد لشيوخه كلهم ، وخاصة منهم شيخيه الجليلين ، والعَلَمين الشهيرين : فضيلة الشيخ عبد الله

سراج الدين الذي صاحبه خمسين سنة ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، الذي صاحبه أربعين سنة ، جعلته يقتدي بهم علماً وعملاً ، سيراً وسلوكاً ، طريقة ومنهجاً ، وكلنا سمع منه مراراً وتكراراً قوله : أنا أحفظ ألفاظ مشايخي ، وما هٰذا إلا لحبه لهم ، بل تضلعه هٰذا الحب في جسده وأحشائه .

وأذكر مرة أنَّا كنا في مجلس شيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد عوض رحمه الله تعالىٰ ، وكانت الأيام أيام حج ، تضم عدداً من مشايخ بلاد الشام ، فتكلم الوالد بكلام علمي روحي ، أخذ قلوب الحاضرين ، وشدَّ انتباه الجالسين ، فقال أحد المشايخ الحضور وهو لا يعرف أن الوالد التلميذ الخاص لفضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، قال : **هٰذه الروح روح الشيخ عبد الله تتكلم** ، فقالوا له : إن الشيخ الوالد أخص تلامذة الشيخ عبد الله ، فقال ذاك الشيخ الشامي : **الآن عرفت السر** .

ومرة أخرىٰ كنت في مجلس خاص مع الوالد ، وأحد أقارب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عقب وفاة الشيخ رحمه الله بأيام ، فقال ذاك الضيف للوالد بعد انتهاء المجلس : أنا أحبك منذ زمن بعيد ، ولٰكن زاد حبي لك الآن ، لكأني أجلس أمام الشيخ رحمه الله بألفاظه وإشاراته .

أقول : هٰكذا سريان المحبة ، وهٰكذا تكون المصاحبة ، تَمَثُّل في الظاهر والباطن ، والروح والنفس ، ووراثةُ كابر عن كابر ، إلىٰ سيد الأكابر صلوات الله وسلاماته عليه .

فلم تهوني ما لم تكُ فيَّ فانياً
ولم تفنَ ما لا تُجتلىٰ فيك صورتي

ز ـ خدمته لشيخيه علمياً :

وقف سيدي الوالد نفسه لشيخيه الجليلين ، ووليَّيْ نعمته العظيمين : فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ ، وقف نفسه علىٰ خدمتهما خدمة علمية خاصة ، فاستفاد منهما استفادة بالغة ، لا يقدر قدرها ، ولا يحدُّ حدها ، درساً وتدريساً ، وتأليفاً وتحقيقاً ، ومقابلة ونسخاً ، حتىٰ طباعة وذوقاً ، فهو خرِّيجهما ، وجامع خيرهما .

وسأعرض لنماذج سريعة توضح تفرغه لخدمة شيخيه علمياً .

❋ ❋ ❋

فضيلة الشّيخ عبد الله سراج الدّين

رَحمَهُ الله تعالىٰ

أكرم الله عز وجل سيدي الوالد بخدمة شيخه الأول الشيخ عبد الله سراج الدين من جهتين اثنتين : جهة خدمته بالمدرسة الشعبانية خدمة كاملة ، وجهة خدمته بكتبه التي كان رحمه الله قد طبعها .

أما خدمته بالمدرسة الشعبانية :

فقد تفرغ الوالد ونذر نفسه لهٰذه المدرسة ـ حتىٰ كادت تعلو علىٰ بيته ـ فكان يأتيها صباحاً للتدريس والتوجيه ، ويعود إلىٰ بيته ظهراً ، ثم يرجع إليها عصراً لحصص المذاكرة والمطالعة مع الطلبة ، ويعود إليها ثالثة بعد العشاء لملاحظة الطلبة الذين يبيتون داخل المدرسة ، لتنظيمهم وحلِّ مشاكلهم ، وتأمين مستلزماتهم .

ومرة كان يذكر فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين لأخيه الروحي فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ثقل أعمال المدرسة وهمومها ، وقال له : « **ما عندي مساعد إلا الشيخ محمد** » .

وقال مرة أيضاً : « **يا ليت لي عشرة مثل الشيخ محمد** » .

وقال أخرىٰ لأساتذة مدرسته : « **لو كان عندي شخص آخر مثل الشيخ محمد ، لكفيت جميع الأساتذة** » .

ولم يتأخر الوالد يوماً ما في خدمة هٰذه المدرسة ، أو قصر في دوامه فيها ، أو توانىٰ في حضوره إليها ، حتىٰ صباح ليلة عرسه حضر ولم يتأخر ، وداوم ولم يتوان .

وهٰكذا تكون الخدمة ، وهٰكذا يكون الإخلاص ، وبناءً علىٰ هٰذا يكون الثمر والإنتاج .

ولقوة هٰذه العلاقة ، وتمام الاعتماد والثقة من مولانا الشيخ علىٰ سيدي الوالد قال لنا فضيلة الشيخ رحمه الله ـ لي أنا وإخوتي ـ في إحدىٰ زياراتنا التي أكرمنا الله بها ، حيث طلبنا منه الإجازة في الحديث .

فقال لنا بالحرف الواحد : « **أنا أجزت والدكم كي يجيز عني ، فخذوا منه** » .

وهٰذه مرتبة أراها عالية ، لا تدانيها مرتبة علمية عند الشيخ رحمه الله .

أما خدمته لفضيلة الشيخ عبد الله في كتبه :

فكان سيدي الوالد هو المسؤول عن كتب الشيخ طباعياً ، يخدمه بين البيت والمطبعة ، والتصحيح والتنقيح ، والمراجعة والتعديل ، وقد أكسبه هٰذا خبرة كبيرة في فن التأليف ، وانتقاء النصوص ، والعزو إلى الأصول ، مع فهم كلام العلماء ، ومراد الأئمة الفقهاء ، بسلاسة واضحة ، وبُعد عن التكلف ، فاستفاد من الشيخ خبرته ، وذوقه وأدبه ، وروحه وعلمه .

ومن قصص أدب الشيخ ، رحمه الله وذوقه التي تذكر : أن سيدي الوالد أتاه بالتجارب الطباعية لكتاب « سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وكان الطابع قد وضع اسم الشيخ أعلى الغلاف على الزاوية اليمنىٰ ، فلم يرضها الشيخ وغضب ، أيكون اسمه فوق اسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يضع اسمه تحت العنوان .

ومن ملاحظته أيضاً رحمه الله ودقته : أنهم كانوا يطبعون جزء ﴿ عَمَّ ﴾ لطلبة المدرسة ، فأراد الوالد أن يكتب على الغلاف : « جزء عمَّ يتساءلون » ، فأنكر الشيخ هٰذا الفعل ، وقال : « بهٰذه الكتابة صارت آية كاملة ، لها حرمتها وخاصيتها » ، وأَرْجع الكتابة كما كانت .

ومما استفاده سيدي الوالد أيضاً من فضيلة الشيخ رحمه الله من انتقاء الألفاظ واختيار الكلمات : ما حكاه لي عندما كنت أخدمه في ترتيب كتابه الماتع « معالم إرشاية » حيث مررنا على الباب الرابع وكان عنوانه سابقاً : معالم إرشادية خاصة بالأستاذ المربي ، فشطب الوالد علىٰ كلمة : إرشادية ، وأبدلها بـ : « تربوية » ، وقال لي : كيف هم أساتذة مربون ، وأنا أكتب لهم : معالم إرشادية ؟! ثم حكىٰ لي : أن أحد مشايخ حلب طبع كتاباً بعنوان : إلىٰ ورثة الأنبياء ، فلما رآه فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله استنكر هٰذا العنوان ، وقال : كيف هم ورثة الأنبياء ويأتي من ينصحهم ؟! .

أما الكتب التي خدم سيدي الوالد فضيلة الشيخ رحمه الله ، فهي ـ كما سمعت منه ـ جميع كتب مولانا الشيخ عبد الله ـ عندما كان فضيلة الشيخ في حلب والمدينة المنورة ـ عدا الطبعة الأولىٰ من « شرح البيقونية » وكذا الطبعة الأولىٰ من « الإيمان بعوالم الآخرة وأحوالها » ، فإنه ألفهما قبل ابتداء صحبة سيدي الوالد لفضيلته .

فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة

رَحمَهُ اللهُ تعَالىٰ

كل من عاشر وخالط مولانا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله ، عرف أنه مدرسة متكاملة في العلم والتحقيق ، والذوق والأدب والتدقيق ، وقد استفاد سيدي الوالد من هٰذه المدرسة المتكاملة استفادة ما سبقه إليها سابق ، ولا داناه فيها مقارب ، لزم شيخه وخدمه في مجال العلم والتحقيق ، ونسخ المخطوطات والمقابلة والتدقيق ، من أول كتاب قام بتحقيقه فضيلة الشيخ رحمه الله تعالىٰ ، وهو « الرفع والتكميل » إلىٰ وقت خروج سيدي الوالد من حلب ـ أي : حتىٰ بعد خروج فضيلة الشيخ من حلب إلى الرياض ـ ، خدمه من مرحلة نسخ المخطوط إلىٰ مرحلة خروجه إلىٰ حيز الوجود .

كل هٰذا يخدمه ويصحبه بنفسية الطالب والمتعلم ، والمستفيد والمتدرب ، فلأجل هٰذا استفاد وجمع ، وارتقىٰ وبرع ، تعلم من مولانا الشيخ حبّ المخطوطات ، وارتياد أماكنها ، وكيفية نسخها ، وقواعد خطها مع ضبطها ، ثم مقابلتها ، والتأكد من صحة ألفاظها ، ومراجعة الأصول لنقولها ، وبعد ذٰلك طباعتها ، والتذوق والتأنق فيها ، فصار معتمده ، ومِرساله ومندوبه ، وهو أول من دلَّ عليه للتحقيق ، وأرسل إليه لخوض هٰذا اللجِّ

العميق ، وذٰلك في كتاب « الأنساب » للإمام السمعاني ، فحقق الوالد منه المجلد السابع والثامن وربع التاسع ، وهو أول تحقيق له حفظه الله تعالىٰ ، وجزىٰ مشايخه عنه خير الجزاء .

والمُجالِس العادي لمولانا الشيخ ـ بدون تدرب وتدرج ـ يكرع الفوائد منه كرعاً ، ويَغِب العلوم غِباً ، فكيف بمن جمع في مجلس واحد : بين المجالسة العلمية والتدرب ، والتلمذة والتدرج ، فكان مجلس المقابلة والتصحيح لا يخلو أبداً من فوائد علمية ، وإرشادات تربوية ، ترسم للوالد الطريق ، وتنير له السبيل ، فكان يحفظها ليسلكها ، ويردِّدُها ليرتادها ، ويذكرها ليترنم بأيامها ، فيعيش بها مع شيخه ، ويعيش بشيخه معها ، فكأنه الآن يحدثه بها ، وهو الآن بين يديه بصوته ونبراته ، وحركاته وإرشاداته ، فترىٰ ألحان قلبه منكسرة ، ومآقي عينه دامعة ، وجنبات نفسه واجفة .

وأنا لم أر ولم أسمع ، ولا أظن أني أصل إلىٰ إنسان يحفظ حركات شيوخه وإشاراتهم ، وألفاظهم وعباراتهم ، وكل ما يتصل بهم من أمور علمية ، وآراء فكرية ، كما يحفظ سيدي الوالد ذٰلك عن شيخيه العظيمين : فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، تغمدهما الله بواسع رحمته ، وألحقنا بهم علىٰ خير حال بكريم منَّته .

وكم كنت أسمع منه وهو يحكي عن تلك الأيام ـ أيام مشايخه وملازمته لهم ـ ، يقول : « **كنا كأنا علىٰ سرر متقابلين** ، **أيام**

لا تشبهها إلا أيام الجنة » ، رحم الله تلك الأنفس الطيبة الطاهرة ، والعقول النيّرة الصافية .

أما ما خدم به سيدي الوالد شيخه فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ، فهي الكتب التي أخرجها مولانا الشيخ أيام وجود الوالد في حلب ، وهي :

١ ـ « الرفع والتكميل » للإمام اللكنوي .

٢ ـ « الأجوبة الفاضلة » للإمام اللكنوي .

٣ ـ « رسالة المسترشدين » للإمام المحاسبي .

٤ ـ « إقامة الحجة » للإمام اللكنوي .

٥ ـ « فتح باب العناية » لملا علي القاري .

٦ ـ « التصريح فيما تواتر في نزول المسيح » للإمام الكشميري .

٧ ـ « الإحكام في تميز الفتاوىٰ عن الأحكام » للإمام القرافي .

٨ ـ « فتح باب العناية » لعلي القاري ، الجزء الأول منه .

ولكتاب « إقامة الحجة » خدمة أكبر وأظهر ، حيث كان مولانا الشيخ علَّق على الملازم الستة الأولىٰ ، وخرَّج باقي نقول الكتاب علىٰ حاشية الكتاب ، وأُدخل رحمه الله عند ذٰلك إلى السجن ، فأرسل للوالد أن يكمل التعليق على الكتاب ويطبعه ، فأكمل وطبع .

هٰذا عدا عن ملازمته له ومساعدته إياه في الأمور العلمية

الأخرى الخاصة ، كخدمته له في المكتبة الوقفية ، حيث انتدب مولانا الشيخ رحمه الله من وزارة المعارف للأوقاف ، لفهرسة المكتبة الوقفية ، فكان سيدي الوالد معه فيها دائماً ، وهٰذا من فضل الله عليه .

ومن نوادر ما سمعت من حضرة سيدي الوالد عن ذوق وتأنق فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تحقيقاته : ما حكاه هو نفسه لفضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمهما الله تعالىٰ ـ وذٰلك بحضور سيدي الوالد ـ : أنه كان ـ أي الشيخ عبد الفتاح ـ يكتب في التعليق العزو إلى الجزء والصفحة مثلاً : ٢٥/٣ ، فرأىٰ بعد الطباعة أن هٰذا الخط المائل / يجرح عين القارئ ـ علىٰ حدِّ تعبيره رحمه الله ـ فغيّره بعد إلىٰ نقطتين ٣ : ٢٥ ، رحم الله أهل الذوق والنظر .

جزى الله مشايخه عنه خير الجزاء ، الذين عبَّدوا له الطريق ودلّوه ، ومهَّدوا له السبل وأرشدوه ، فانطلق متابعاً لمسيرتهم العلمية ، منافحاً عن منهاج أئمتنا الفكرية ، تحقيقاً وتدقيقاً ، جرحاً وتعديلاً ، فبرز وعلا ، وفاق وسما ، فُحقَّ له أن يكون « رائد مدرسة » ، و« عنوان كتاب » .

وأختم هٰذه الفقرة بمقولة سمعتها من سيدي الوالد في معرض ذكر خدمته لشيخيه رحمهما الله تعالىٰ ، قال لي : « إذا كان لي عمل أدخره عند الله تعالىٰ ، فهو إخلاصي لهٰذين الشيخين رحمهما الله تعالىٰ » .

ح ـ تبكيره بالخطابة والتدريس :

إن إدخال المعلومات إلى الذهن وتلقيها ، يحتاج إلىٰ طريقة وفنّ ، وكذا إخراجها وتلقينها ، يحتاج إلىٰ دربة وأصول ، فالخطابة والتدريس هما أسُّ أساس التلقين والتعليم ، والتدريب على الإلقاء والتوجيه ، وقد أكرم الله سيدي الوالد بهٰذين الأمرين في مرحلة مبكرة من عمره ، سأعرض لهما باختصار وتوجيه :

١ ـ الخطابة :

ارتقىٰ سيدي الوالد المنبر أول ما ارتقاه وكان عمره ثماني عشرة سنة ، في مسجد سوق العطارين وظل يخطب وينتقل في مساجد حلب ، من مسجد إلىٰ مسجد ، يرشد ويوجه ، وينصح وينبِّه ، إلىٰ أن خرج منها وعمره أربعون سنة .

وقد ساعدت هٰذه الخطب علىٰ تمرسه في الثقافة الشرعية العامة ، ونبوغه فيها من عدة جوانب وأمور ، أهمها :

تعرضه طيلة هٰذه السنين إلىٰ مواضيع يحتاجها الفرد والمجتمع ، والعامي والعالم ، والمثقف والجاهل ، تتنوع بتنوع المناسبات ، وتتغير بتغير المتطلبات ، يلقيها ارتجالاً كعادة علماء بلده ، لا تعرف الورقة إليهم سبيلاً ، ولا القصاصات لهم دليلاً .

والمهم في هٰذا كله ـ وهو الأساس في هٰذه الفكرة ـ ، أنه كان يشترط علىٰ نفسه في خطبه ألا يذكر إلا حديثاً صحيحاً أو

حسناً ، ولا يتطرق للضعيف المردود أبداً ، فعوَّد نفسه من شبابه علىٰ حفظ الصحيح والحسن ، وقد جرَّ هٰذا إلىٰ كلماته العامة أيضاً ، فإذا سمعت منه حديثاً في خطبة له أو كلمة أو نصيحة منه أو موعظة ، فاعلم أنه حديث حكمه القَبول ، ولا تتردد .

وهٰذه نقطة أثَّرت في تكوينه ، وزادت في محفوظاته ، وأعطت الثقة في ملفوظاته .

٢ ـ التدريس :

دخل سيدي الوالد فنَّ التدريس تحت إشراف شيخه الشيخ عبد الله سراج الدين في مدرسته الشعبانية باختيارٍ وطلب من الشيخ رحمه الله ، وذٰلك بعدما تخرج من المدرسة الشرعية ، حيث كان عمره (٢٢) سنة .

فانتسب إلىٰ كلية الشريعة بجامعة دمشق طالباً ، وانتسب إلى المدرسة الشعبانية مدرساً ، واستمر بها مدرساً وموجهاً ، وأميناً لمكتبتها ، ثم مديراً لها إلىٰ أن خرج من حلب عام ١٩٨٠م مهاجراً إلى المدينة المنورة ، وهو في كلِّ هٰذه السنوات والمناصب خادماً لشيخه ، مخلصاً لمعلمه ، لم يُعهد عنه يوماً تقصير أو تهاون ، أو تضجُّر أو تكاسُل ، بل كان لشيخه يمينه ، ومستشاره وأمينه .

وهو معروف في دروسه ـ منذ شبابه ـ بسعة اطلاعه ، وجدِّه واجتهاده ، حتىٰ صار يُضرب به بين الطلبة المثل ، مع ضبط

للأمور وشدة ، وحزم منه يصحبها همة ، نوىٰ بهٰذا كله تربية جيل جادٍّ مجدٍّ نابغ ، محصِّل للعلوم ونابه ، فدرَّس فيها علوماً كثيرة متنوعة في المادة ، متفاوتة في المستوىٰ ، فكان يدرس السنة الأولىٰ ، كما كان يدرس قسم التخصص ، وهٰذه بمفردها مزية للأستاذ المعلِّم ، فالتنزُّل بالمعلومات وتبسيطها إلى المرحلة الأولىٰ للطالب ، ثم الدخول بعدها مباشرة إلىٰ قسم التخصص ، ورفع مستوى المعلومات ، وكيفية التعامل والتعلم فهٰذا مما لا يستطيعها الكلُّ ، فضلاً عن الشباب منهم .

وأذكر من المواد التي درَّسها سيدي الوالد علىٰ مختلف التخصصات والمستويات والأزمان : العقيدة ، وعلوم القرآن ، والتفسير ، وآيات الأحكام ، والحديث ، ومصطلح الحديث ، وأحاديث الأحكام ، والفقه ، والنحو .

وهٰذا التنوع من العلوم في الإلقاء والتدريس ـ وهو ما زال في سن الشباب ـ ، يستدعي منه خوض الغمار ، وإثبات الشخصية في المضمار ، فكان لا يفتر عن القراءة والمطالعة ، والتلقي علىٰ مشايخه ، والمذاكرة مع إخوانه ، فأثرىٰ فيه هٰذا الأمر جداً ، من التركيز والتعمق ، والتنوع والتوسع .

ومما زاده نبوغاً وتوسعاً أنه لم يقتصر في دروسه علىٰ طلبة العلم الشرعي فقط ، بل كان له درس ـ وهو في الثلاثين من عمره ـ مع أطباء ومهندسين ، يقرأ لهم علم التفسير .

ومعلوم أن عقلية المثقفين الماديين تختلف عن عقلية

المثقفين الشرعيين ، فكان هٰذا الدرس يستدعي منه التحضير بشكل آخر ، كي يرد بعض الشبه المادية ، والانتقادات العقلية ، والمناقشةُ مع المناقِش : فائدتها العلمية أكثرُ من المُسلِّم ، فقوي عضده ، وتنوعت ثقافته ، وتوسعت مداركه .

كما كانت لدروس جامع الروضة أثر كبير في تقويته بعد قوته ، وتعمقه أكثر بعد رسوخه ، فكان هٰذا المسجد هو الجامعة العلمية التي تجمع كبار مشايخه ، وأساطين أساتذته ، فاختير للتدريس به ، فأثبت جدارته ، وعلت بذٰلك مكانته ، فكثر الطلبة عليه ، وصار الإقبال إليه ، حتى انتقد ذٰلك البعض وغار ، غفر الله للجميع .

ط ـ تفرغه في المدينة المنورة :

أكرم الله تعالىٰ سيدي الوالد بالجوار في المدينة المنورة في منتصف عام ١٤٠٠هـ ، وزاد في إكرامه وعطاياه أن هيأ له الأسباب ، ففرغه للعلم والنماء ، والاستزادة والعطاء ، فصار ليله ونهاره ، وصباحه ومساءه ، في مكتبه أو في بيته : في العلم والقراءة ، والتأليف والتحقيق ، والتعليق والتدقيق ، بالإضافة إلى العزلة والوحدة ، والبعد عن المشاغل الدنيوية ، والتخفيف من العلائق الاجتماعية ، مع وفرة المصادر والمراجع ، ووجود المخطوطات والنوادر ، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فاستغل هٰذا الخير واستفاد ، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولا ننسىٰ أن هٰذا الكرم الإلٰهي جاءه بعد اكتمال أهليته ،

ورسوخ قدمه ، وتأسيسه علمياً وتدرجه ، فبنىٰ علىٰ أساس بنيانه ، وارتفع وعلا عمرانه ، وهـٰذا كله مما يزيد في تبحره ، ويقوي في تعمقه ، والمنة لله أولاً وآخراً .

هـٰذه هي أهم الأسباب التي أرىٰ أنها أدت إلىٰ نبوغ سيدي الوالد ، وظهوره ، وشهرته ، وبعد صيته ، بعد توفيق الله له ، واختياره إياه ، كي يكون من أعمدة دينه ، وأوتاد شرعه ، حاولت فيها الاختصار والاقتصار ، مكتفياً ببعض الحوادث والأخبار ، موجهاً لها ، وموضحاً أثرها ، كي تكون « معالم إرشادية » عملية ، بعد أن كتب سيدي الوالد « معالم إرشادية » علمية ، أحببت توضيحها لأخي طالب العلم وراغبه ، ليقتدي بها ، ويستنير بهديها ، والله الموفق والهادي .

محطّات ووقفات تربويّة في حياته

إن طالب العلم اليقظ النبيه ، المعاشر لأهل الهمم والأكابر ، والمصاحب لأصحاب المعالي والمفاخر ، يستفيد مما يمرُّ به من لحظات معهم ووقفات ، وقصص بينهم ومحطات ، يعتبرها له منهجاً ، ولطريقه مسلكاً ، ولأيامه عبراً ، فقد يستفيد من كلمة منهم ما لا يستفيده من صفحات ، وقد يستفيد من وقفة معهم ما لا يستفيده من حوادث وواقعات ، وخاصة إن كان الطرفان من أهل العلم والنباهة ، واليقظة والفطانة ، وإن تيسرت تلك المعاني والصفات ، فاعلم أن هٰذه ملاحظة إلٰهية ، ومكرمة ربانية ، تلاحظ طالب اليوم ، ليكون عالم الغد .

ومن هٰذه المحطات العظيمة ، والوقفات الجسيمة ـ تربوية كانت أو علمية ـ التي أثَّرت في نفس سيدي الوالد ، وهو في مرحلة الطلب ـ أو حتىٰ بعده ، فالإنسان في مدرسة ما دام يذكر الله ـ ، ما سأذكره باختصار واقتصار علىٰ مثالٍ أو مثالين عند كل محطة أو وقفة ، بعداً عن الإطالة ، لا خوفاً من السآمة ، فأقول :

ـ أول هٰذه المحطات التي مرَّ بها سيدي الوالد في طلبه ، ومن أكثرها أثراً ودلالة في نفسه ، وخاصة في وقت حدوثها ، حيث رسمت له منهجاً في التعامل مع الكبار ، وضبط النفس

ومحاسبة اللسان : ما حصل بينه وبين والده رحمه الله تعالىٰ ـ وكان سيدي الوالد إذ ذاك في أوائل سنوات الطلب ـ حيث جاء ذكر أحد كبار أصحاب العمائم في بلده حلب ـ وعليه ما عليه من الكلام ـ فانتقد الوالد ذٰلك الشيخ الكبير ، فلاحظ حضرة الجدِّ رحمه الله انتقاد هٰذا الطفل الناشئ لذاك الشيخ الكبير ـ وإن كان انتقاده في محله ـ ولٰكن أغضبه هٰذا الأمر وهٰذا التجرؤ ، وخاف علىٰ ولده أن ينشأ علىٰ هٰذه العادة السيئة المذمومة : التجرؤ على الكبار ، فغضب منه جداً ، وأنَّبه ، ونصحه ونبهه ، وقال له : **يا ولدي ، والله لو رأيت قطة تخرج من بيت شيخ لاحترمتها** ، فتيقَّظ الوالد وانتبه ، ووعىٰ لأمره ، وتعلم أن للكبار حُرمة ، وقداسة ومكانة ، يجابههم أندادهم ، وينتقدهم خلانهم ، أما هو فطالب ، وطالب صغير ، بوجود عمالقة زمانه ، وأساطين علماء عصره ، فكيف يتجرأ ويتكلم ، وينتقد ويستدرك ؟! .

ورحم الله سيدي الجد ، لو رأىٰ عصرنا ، ومن لا يحسن الوضوء فينا ، لا ينتقد مشايخ عصره ، بل ينتقد أئمة دينه !! ، ووسطاء شرعه ، ولٰكن :

وعلى الكبار تطاول الأقزام

ـ ومن الوقفات التربوية العظيمة التي أثَّرت بنفسية سيدي الوالد ، تواضعاً وإكباراً ، ما سمعته منه أيضاً : أنه كان في الصف الثالث في المدرسة الشعبانية ، وكان فضيلة العلامة النادرة الشيخ

عبد الرحمٰن زين العابدين [١] ، يقرأ لهم كتاب « قطر الندىٰ » للإمام ابن هشام ، وكان مشايخ تلك الطبقة الكبار ـ فضلاً عن الطلبة الصغار ـ ينظرون إلىٰ هٰذا الشيخ نظرة إعجاب وإكبار ، فقال لهم وهم في الدرس : والله لو دخل علينا الآن ابن هشام ، ورآني أدرس كتابه لخلع حذاءه وضربني ، وقال لي : أنا لم أؤلف كتابي هٰذا لتدرسه أنت وأمثالك .

فتعجب الطلبة في نفوسهم ، وتحيروا في عقولهم ، أمثل هٰذا الشيخ الكبير يقول مثل هٰذا القول ؟! ، ويحلف هٰذا الحلف ؟! ، **فما مقدار ابن هشام** ؟! ، **وما مكانة هٰذا الكتاب** ؟! ، فانغرس في قلوبهم جلالة أئمتهم ، وانبثق في عقولهم مكانة علمائهم .

ـ وقريب من هٰذا الموقف التربوي ، بل هو تربوي علمي ، ما حصل مع مولانا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ، حيث جاء إلىٰ غرفة الوالد بالسيافية ، يراجع نصاً من كتاب شرح العلامة العزيزي على « الجامع الصغير » للسيوطي ، وأعاد الشيخ النص عدة مرات ، يقلب أوجهه ، ويعيد ضمائره ، ولا يتضح له المعنىٰ ، ولا يقف على المراد ، فلم يكن من هٰذا الشيخ المربي أنِ انتقدَ الكتابَ أو المؤلف أمام تلميذه الناشئ ، لغموض

---

(١) اقرأ حول عبقرية هٰذا العالم : ما سجله عنه فضيلة مولانا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة آخر كتاب « الإحكام » للقرافي ، وزد أيضاً ما سجله الوالد في كتابه « معالم إرشادية » ص ١١٢ تعليقاً .

عبارته ، أو عدم دقتها ، بل قال له : « **هٰكذا يقول الشيخ ، ونحن لا نحسن الفهم عنه** » ، والشيخ هو الشيخ ، بل هو شيخ المشايخ في نظر سيدي الوالد ، ويقول هٰذه الكلمة !! ، وأنه لا يفهم كلام العلماء ؟! ، فاستغرب الوالد هٰذه الكلمة ، وتحير فيها ، ولٰكنها كانت مقصودة من مولانا الشيخ المربي ؛ لأنه يربي تلميذاً ما زال في مرحلة التلقي والطلب ، أما بعد أن يستدَّ ساعده ، ويقوىٰ عوده : فنعم ، يعلمه النقد مع الأدب ، والأدب مع النقد .

وهٰذا ما حصل معه تماماً ، فبعد أن رسخت قدم الوالد ، وتمكَّن علمه ، وقويت شوكته ، بعد هٰذا الموقف بنحو ثلاثين سنة ، جاء ذكر « مسند الإمام أحمد » مع مولانا الشيخ ، وخدمة الأستاذ الشيخ أحمد شاكر له ، ثم تكملة الدكتور الحسيني عبد المجيد ، فقال مولانا الشيخ منتقداً : كيف ينقل عن العزيزي في تعليقه على « المسند » ؟! يريد كما قال سيدي الوالد : إن « المسند » كتاب أصيل من كتب السنة ، لا يحسن أن ينقل في تحقيقه وشرحه إلا عن مثله من فحول الكتب والعلماء ، أما هٰذا الشرح فليس كذٰلك .

وأقول : انظر الفرق بين الموقفين ، وقارن بين الكلامين ، ترى العلم والعقل ، وهٰكذا المشايخ المربون ، والعلماء العاقلون ، الذين يُعلِّمون بصمت ، ويوجهون بحكمة ، ينتجون مدارس ناطقة ، ومجامع متحركة في العلم والأدب ، والنقد والأخلاق .

ـ ومن الوقفات التربوية التي علمت سيدي الوالد ونبهته إلىٰ

مدىٰ أدب الطالب مع شيخه ، وكيفية أدب التلميذ مع أستاذه : ما حكاه هو حفظه الله في كتابه « معالم إرشادية » عن شيخه فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، حينما نبَّه أحد أساتذة مدرسته ، حيث جاء ظل شيخ الشيخ عبد الله سراج الدين ـ وهو الشيخ أسعد عِبَه جي ـ علىٰ قدم ذاك الأستاذ ، فأشار الشيخ عبد الله إلى الأستاذ أن يُبعد قدمه احتراماً لظل الشيخ أسعد ، رحمهم الله جميعاً[١] .

ـ ويشابهها أيضاً مع نفس الشيخ أسعد عِبَه جي : ما حصل مع سيدي الوالد مع شيخه فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، حيث جاء الوالد وزميله الشيخ عبد المجيد قطان ليسلِّما على الشيخين ، فبدأ الشيخ عبد المجيد بالسلام على الشيخ عبد الفتاح ، فامتنع الشيخ وأشار إلىٰ شيخه الشيخ أسعد ، وجاء الوالد ليسلم على الشيخ عبد الفتاح إلىٰ أن ينتهي الشيخ عبد المجيد من السلام على الشيخ أسعد ، فكذا امتنع ، وقال له : الشيخ أولاً[٢] .

فهٰذه هي التربية الحالية والقولية ، والفعلية والعملية ، لا تخالف أقوالهم أعمالهم ، ولا أحوالهم أفعالهم ، وحقَّ أن يقال فيهم :

أولٰئك آبائي فجئني بمثلهم

ـ ومن مواقف التربية أيضاً : الوفاء والمودة بين الإخوة

---

(١) تنظر القصة في : « معالم إرشادية » ص ٢٢٦ .

(٢) تنظر القصة أيضاً بالمصدر السابق .

والزملاء ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وقد سمعت مراراً من حضرة سيدي الوالد ما يحكيه عن المحبة المتبادلة بين الإخوة الثلاثة في الطلب والتلقي : فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وفضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ محمد فوزي فيض الله رحمهم الله تعالىٰ ، فقد كانوا إخوة متآخين ، متعاهدين متصافين ، يحبّ كلٌّ منهم الآخر ، ويعترف كلٌّ منهم بفضل الآخر ، يتعاونون على الخير والتعليم ، والنصح والإرشاد ، والتلقين .

سمعت سيدي الوالد يقول : في عام ١٩٦٣ أقام فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين حفلاً لاجتماع أعضاء جمعية التعليم الشرعي ، وكان أحد المتكلمين فضيلة العلامة القدوة ، الشيخ محمد فوزي فيض الله ، فقال رحمه الله تعالىٰ حرفياً :

« يا أبناءنا الطلاب ، لقد نلنا من الشهادات أعلاها ، ومن الألقاب العلمية أرقاها ، وكانت خاتمة المطاف بنا : أن جئنا نسعىٰ في ركاب من لا يحمل شهادة ابتدائية ، ولكنه يحمل ثقة الأمة به » ، وأشار إلىٰ فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، فانظر هٰذا الاعتراف ، وانظر إلىٰ هٰذا التقدير .

أما سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، فقد طلب رحمه الله تعالىٰ من سيدي الوالد الكلمة التي ألقاها الوالد عنه في حفل الاثنينية الذي كُرِّم فيه فضيلة الشيخ عند الأستاذ عبد المقصود خوجه جزاه الله خيراً ، فأرسل سيدي الوالد الأوراق ، وبعد

أيام قليلة ، اتصل فضيلة الشيخ بسيدي الوالد وقال له حرفياً : « وصلت الأوراق ، وأجمل ما فيها ذكر اسم الأخ الشيخ عبد الله فيها ، وأنا أدعو الله تعالىٰ له صبيحة كل يوم ، وأجعل دعائي له شفاعة (ليقبل) » .

أما فضيلة الشيخ عبد الله فكان يقول دائماً عن فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ : له فضلٌ عليَّ .

وقصة هـٰذا : أن الشيخ عبد الله التحق بالخسروية متأخراً ، وكانت الدراسة قد بدأت ، ففاتته بعض الدروس ، وكان معه في الدراسة والفصل الشيخ عبد الفتاح ، فدرّس الشيخُ عبد الفتاح الشيخَ عبد الله هـٰذه الدروس الفائتة ، فكان الشيخ عبد الله يعترف بهـٰذا الفضل للشيخ عبد الفتاح ، ويقول عنه هـٰذه الكلمة ، رحمهما الله تعالىٰ .

وأقول :

هـٰكذا يكون الوفاء ، وهـٰكذا تكون المحبة ، وهـٰكذا يكون الإخلاص ، وهـٰكذا يكون الاعتراف ، وهـٰكذا تكون التربية ، وهـٰذا هو تاريخ مشايخنا وعلمائنا ، وأئمتنا وقادتنا ، قلوب صافية ، ونفوس طاهرة ، وأفئدة نقية ، مع علم جم ، وأدب عالٍ ، وخلق رفيع ، وإخلاص عجيب ، لا يعرف الكبر لهم طريقاً ، ولا الحسد إليهم سبيلاً ، ولا غمط الحق لهم عنواناً ، ما هم إلا اختيار وانتقاء ، وتفضّل واصطفاء ، تذكير بالسلف ، وتذكار للخلف ،

ولو ملأت الكتاب من أوله إلىٰ آخره بقول الشاعر الفرزدق : « أولئك آبائي فجئني بمثلهم » لكنت والله مُقلاً مجحفاً .

ـ ومن محطات الاجتهاد بالعبادة التي أدهشت عقل الوالد آنذاك ، ما سمعته منه : أنه كان مرة مع شيخه فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين في إدارة المدرسة الشعبانية ، فجاء أحد المحبين يطلب من فضيلة الشيخ الإذن بالوِرْدِ الرفاعي ، فأعطاه الشيخ الإذن ، ومما نصحه به ـ وهو المبتدئ بالطريقة والوِرد ـ : قال : أن تقوم بالليل وتصلي التهجد ، ولو قبل الفجر بساعتين ـ علىٰ سبيل التقليل ـ ، فتعجب الوالد ودهش ، وقال في نفسه : إذا كان هٰذا الشخص المبتدئ بالطريقة والوِرْد ، سمح له فضيلة الشيخ وتنازل ـ لأنه متبدئ في الذكر والقيام ـ أن يقوم قبل الفجر بساعتين فقط ، فإذن هٰذا الشيخ متىٰ يقوم ؟! ، وكم يقوم ؟! ، سبحان المعطي الوهاب .

ـ ومن وقفات علو الهمة في العلم والبحث والتحقيق ، ما حصل له مع شيخيه العالِمين العلَمين : فضيلة الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي ، وفضيلة الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني ، رحمهما الله تعالىٰ .

فعندما زار فضيلة العلامة الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي حلب في آخر عام (١٣٩٨) كان عمره رحمه الله آنذاك ٧٩ سنة ، ولٰكنه كان في روح الشباب وهمته ، يبحث وهو في هٰذا العمر عن مخطوطات « دلائل النبوة » للبيهقي ، كي يقوم بتحقيقه

وإخراجه ، فكان سيدي الوالد يرافقه في تلك الرحلة ، ويرىٰ همته وبحثه وتنقيبه ، ويقول في نفسه : ماذا يأمل هـٰذا الشيخ الكبير من العمر ، وهو في هـٰذه السِّن يبحث عن مخطوطات ليحققها ؟! ، وكتب ليخرجها ؟! ، ولـٰكنها الهمة ، واستغلال العمر والنفس .

أما شيخه الآخر ، فضيلة الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني ، فهو أغرب وأعجب ، فقد سافر من باكستان إلىٰ تركيا مروراً بالمدينة المنورة ـ وهو في الثمانين من عمره مع صحة منهكة ، أواخر أيام حياته ـ ، كي يبحث في مراكز المخطوطات هناك عن مسانيد الإمام الأعظم رحمه الله ليحققها ويقوم بطباعتها .

ومما يلحق بهـٰذا الباب أيضاً من علو الهمة في العلم وعدم الضجر منه في جميع الحالات : ما حكاه سيدي الوالد في « معالم إرشادية » عن شيخه العمدة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ، حينما اتصل عليه مرة فرأىٰ في صوته ضعفاً ، فاعتذر إليه الوالد من الاتصال علىٰ أمل الاتصال مرة ثانية ، فلم يرض مولانا الشيخ رحمه الله ، وقال له بإصرار : « **قل ، قل ، كانوا يستشفون بـ : حدثنا وأخبرنا** »[1] .

ـ ومن الوقفات التربوية الأخلاقية من ناحية التواضع وهضم الذات ، وقد أثرت بنفسه ونفسيته ، ما يحكيه عن فضيلة شيخه الأول وهو كذا شيخ مشايخه ـ ، العلامة الورع الشيخ محمد

(١) تنظر القصة في : « معالم إرشادية » ص ٢٠٤ تعليقاً .

السلقيني رحمه الله تعالىٰ : أنهم كانوا عنده في يوم عيد ، وكان الشيخ رحمه الله هو شيخ حيِّه ومرجعه ، وفي المجلس كبار رجال الحي ووجهاؤهم لمعايدة الشيخ ، وبينما هم في المجلس ، إذ دخل أحد أحفاد الشيخ الصغار جداً ، وبيده عصاً ، وتوجه بها إلى الشيخ ، فقال له هٰذا الشيخ الكبير بتواضعه المشهور ، وصدقه المعروف : نعم يا ولدي والله ، العصا لمن عصىٰ .

ـ وموقف آخر مع نفس مولانا الشيخ السلقيني رحمه الله ، حيث كان الوالد يماشيه في الشارع العام بحيِّهم ، وإذا بُنيَّة معها قِربة ماء كبيرة ، لا تستطيع حملها لتوصلها إلىٰ بيتها ، فطلبت من فضيلة الشيخ حملها وإيصالها ، فجاء الشيخ ليحملها لها ، ويوصلها إلىٰ منزلها ، بأريحية نفس ، وسرعة استجابة ، ولٰكن سبقه الوالد وأخذها عنه ، وأوصلها لها .

ـ ومن وقفات التربية الأخلاقية من مجالس العلماء ، والاحترام المتبادل بينهم ، ما سمعته من حضرة سيدي الوالد ، أنه كان في زيارة خاصة لمولانا الشيخ محمود حسن ، المعروف بـ : « مفتي الهند » ، رحمه الله تعالىٰ ، وسيدي الوالد في عُمُر تلامذته ، فقرُب وقت صلاة المغرب ، فقال تلامذة الشيخ لشيخهم : حان وقت الصلاة كي تتوضَّأ ، فتعجب الشيخ رحمه الله منهم ، وقال لهم متعجباً مستنكراً : « **أأجلس مع الشيخ بدون وضوء** ؟! » ، فأثَّر هٰذا الموقف في حياة سيدي الوالد ، وحرص على التمثل به في حياته عامة ، وعند مجالسة العلماء خاصة .

رحم الله مشايخنا ورضي عنهم ، فقد كانوا عظماء بأنفسهم ، متواضعين بنفسياتهم ، كباراً بأخلاقهم ، مهيبين بأرواحهم ، مَعْلَمة بآدابهم ، مدارس تُحكىٰ ، وقصصاً تُروىٰ .

حلفَ الزمانُ ليأتينَّ بمثلِهِ حنثَتْ يمينُك يا زمانُ فكَفِّرِ

ملامح تربويّة في حياة الأسرة

إن لكل فرد من أفراد هٰذه الدنيا حياةً عامة ، يواجه بها الناس ، وحياة خاصة ، يعيشها في أهل بيته ، إذا أُرخي الستر ، وأُنزل الحجاب .

وأعلام الرجال ، وأوتاد الأفذاذ ، أصحاب المدارس العلمية ، والاتجاهات التربوية الفكرية ، من يُقتدىٰ بهم ، ويستنار بآرائهم ، لا شكَّ أن عقولهم تنعكس علىٰ تعاملاتهم ، وخبراتهم علىٰ خصوصيَّاتهم ، فتراه يَغرس ويُخرِج ، ويرعىٰ ويُنجب ، قدر استطاعته وكفاحه ، وجهده وجهاده ، موقناً أن التوفيق من عند الله تعالىٰ .

وأنا هنا سأكشف الستر ، وأزيح الحجب عن وقفات تربوية داخلية ، لا يعرفها إلا الملاصق ، ولم يطلع عليها إلا المخالط .

اختيار الاسم :

من المعلوم أن البحث عن الاسم وانتقائه ، والتفتيش عليه واختياره للمولود القادم ، من أوائل الواجبات على الوالد تجاه ولده ، عدا عن أن الشارع الحكيم قد حثَّ علىٰ حسن هٰذا الاختيار ، وأكَّد علىٰ ضرورة جودة الانتقاء ، ولهٰذا الأمر وأهميته ، مع الاعتقاد أن الاسم يؤثر على المسمىٰ ، وما عرف

عن التسليم التام من حضرة سيدي الوالد لشيخه الأجل ، الشيخ عبد الله سراج الدين :

كان سيدي الوالد يأخذ مولوده أول ولادته لحضرة شيخه رحمه الله ، فيحنكه له ويسميه ، ويبرّك عليه ويدعو له ، فنحن جميعاً ـ ذكوراً ـ من تسمية فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ ، ولقوة المحبة المتبادلة بين الشيخ والتلميذ ، اختار لنا فضيلة الشيخ الأسماء التي سمَّىٰ بها أولادَهُ وأنجالَهُ حفظهم الله تعالىٰ ، فأسماؤنا واحدة .

وهٰذا الموقف من سيدي الوالد ، كان يذكره لنا ويغرسه فينا ، منبهاً إلىٰ ضرورة انتقاء الأسماء ، ومشيراً إلىٰ تسليم هٰذا الأمر إلىٰ من هو أولىٰ وأبرك ، وأتقىٰ وأعلم ، مع الالتفات دائماً إلىٰ أهمية المعنىٰ ، وأسلَمة المبنىٰ عدا عن غرسه فينا حبَّ مشايخنا ، وتسليمهم مقاليد أمورنا ، وهٰذا مبحث سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالىٰ .

حثّه الشديد علىٰ طلب العلم :

إن حبَّ العلم ، بل الشغف به ، أخذ في نفس سيدي الوالد كل مأخذ ، أخذ قلبه وعقله ، ولبَّه وفؤاده ، فتراه لا يتكلم إلا به ، ولا يعيش إلا له ، ولهٰذا يحب لأولاده ما يحبه لنفسه ، ويرجو لهم النجاة بما يرجوه لشخصه ، فيحثهم علىٰ طلب العلم حثّاً ، ويرغبهم فيه ترغيباً ، ديانة واعتقاداً ، ولهٰذا كان يقول لنا دائماً : « **أنا لا أعلم أرفع ولا أعلىٰ بعد النبوة من طلب العلم** » .

كلُّ هٰذا كي يغرس في أولاده وأحفاده حبَّ العلم ، والترغيب في طلبه ، وعدم إضاعة الوقت في غيره ، مع تنبيهه الشديد ، وتأكيده الحثيث على الإخلاص فيه ، وأنه الإكسير المفقود ، ويردد علينا دائماً وأبداً : « **الإخلاص يصنع العجائب** » لا خيَّب الله له آماله .

وإن سيدي الوالد ، ابن بيئته ، يعيش عصره ، ويعي واقعه ، فيعلم أن الفقر ملازم للطالب ، مؤاخٍ له ، فيثبتنا مع التنبيه ، ويحضنا مع التشديد ، ويقول لنا : « **لو تسفُّون التراب سفّاً لا تتركوا طلب العلم** » ، ويقول معها مباشرة : « **إن الله لا يضيم طالب العلم المخلص** » ، ويذكر لنا الشواهد من التاريخ للمثابرة والتثبيت .

كل هٰذا كي يغرس فينا حبَّ العلم ، والثبات عليه ، مرغباً لا مرهباً ، حريصاً لا مشدداً ، راجياً داعياً الله دائماً أن لا يخيب أمله ، وأن يحقِّق سؤله ورجاءه .

ومما يتصل بحب العلم لأبنائه ، ملاحظة التدرج في طلبهم ، والأولويات في تكوينهم ، فأولاً وقبل كل شيء : يوجه أبنائه إلىٰ حفظ القرآن الكريم ، ويحضهم ، ويشجعهم عليه ، ويهيئ لهم أسباب ذٰلك ويقول لنا مقولة شيخه سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين : « **طالب العلم مهما بلغ وارتقىٰ ، إن لم يكن حافظاً للقرآن الكريم ، فهو في نقص** » .

ثم يدرج لنا العلوم ، فيهتم أولاً : بالعربية وعلومها ، ويحثُّ

على التمكن بها ، وكم وكم نكون معه جلوساً أو في الطريق ، فيستغل هٰذا الوقت بالسؤال عن الإعراب ، فيُعلِّم ويُدرِّب ، ويناقش ويوجِّه .

ثم بعد التدرج في علوم العربية : يرشدنا إلىٰ علم الفقه ، ويوضح لنا أهميته وضرورته ، وأنه هو الدين ، فكان يقرأ لنا ـ ونحن صغار ـ كتاب « مراقي الفلاح » ، ولٰكن بتبسيط سيدي الوالد ، وعباراته كي نفهم المراد ، ونستوعب المسألة ، وكان يحضني علىٰ حفظ كتاب « القدوري » ، كي يبقىٰ في ذاكرة طالب العلم : رؤوس المسائل ، فيرجع إليها متىٰ يريد .

ثم بعد ذٰلك باقي التخصصات عنده متساوية ، بحصص متقاربة ، من حديث وتفسير وعقيدة وغيرها .

وكان يرشدنا إلى الكتب في كل فن ، وفي كل طبقة ، كي يكون الأساس قوياً ، والبناء متيناً ، جزاه الله عنا خيراً .

ولا ينسىٰ أحفاده ، فكم يرغب ويشجع علىٰ إتيانهم إلىٰ مكتبه ، وجلوسهم فيه ، وكم مرة قال لي : « **أريد أن يكون هٰذا المكتب لأبنائكم** » ، يقصد أن أولاده كلاً منهم استقر طريقه ، أما أحفاده فهو الآن يريد استدراجهم إليه ، والتمسك بهم .

حرصه على التمسك بالسنن والآداب الإسلامية :

يحرص سيدي الوالد على التمسك بالسنن النبوية في بيته ، ودوامها مع عائلته ، والتنبيه إلىٰ أن الالتزام بها يورث المحبة

والقرب ، والتهاون بها يستدعي الجفوة والبعد ، ولما يذكر له أحدنا أن هٰذا الأمر سنة وليس بواجب ، يردد علينا مقولة فضيلة الشيخ المربي أحمد عز الدين البيانوني : « **الناس لا يعرفون من السنن إلا جواز تركها** » ، ويذكر لنا قصص مشايخه رحمهم الله تعالىٰ وحرصهم الشديد على اتباع السنة قولاً وفعلاً ، مظهراً ومخبراً ، سيراً وسلوكاً .

فمن مظاهر حرصه على السنن ـ مثلاً : اللوم علىٰ إسبال الثوب زيادة على الكعبين ، وعدم تغطية الرأس ، والتأكيد على الالتزام بسنن الصلوات ، والحرص الشديد على الصلاة بجماعة ، والتعجب ممن يتهاون بها ، والتيامن في كل الأمور ، وإفشاء السلام .

ومن مظاهر حرصه على السنة في رمضان ـ عدا عن التراويح والحث عليها للكبار والصغار ـ : السحور ، فكان يوقظ أهله وأولاده في وقت السحور ، ولو لِلُقَيماتٍ قليلة خفيفة ، حفاظاً منه علىٰ سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولبركته كما هو معلوم .

ومن حرصه أيضاً علىٰ تعليمنا الصدقة كل يوم ، ولو بشيء بسيط ، وغرس هٰذا الأمر في صغارنا ، فتراه إن كان معه بعض الصغار يعطيه ما يريد ، ويقول له : اذهب إلىٰ ذاك وأعطه ، واطلب منه الدعاء .

وهٰكذا تراه في كل أموره معلماً وموجهاً ، ومربيّاً ومرشداً .

ومما يتبع هٰذا الأمر من غرس محبة اتباع السنة والتأدب

بالآداب الإسلامية ، أن أعطىٰ كل فرد من أفراد أسرته كتاب مولانا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة « من أدب الإسلام » ، وأرشدهم إلىٰ قراءته ، والتأدب بما فيه ، وكان يقول لنا دائماً عن هٰذا الكتاب : « **إنه يمثِّل أدب الشيخ رحمه الله تعالىٰ** » .

حرصه علىٰ وقت عائلته وتضايقه الشديد من ضياع وقتهم :

الوقت له قيمة غالية ، ومكانة عالية عند سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ ، فلا يضيع هو وقته ، ولا يرضىٰ عن أحد من أفراد أسرته أن يضيع وقته ، أو يهدر عمره ، فتراه يتضايق جداً عندما نجتمع ويكون الكلام عاماً في عموميات هٰذه الحياة ، فيقول لنا : اسألوني مسألة ، أو تذاكروا معي في العلم ، لماذا تضيعون أوقاتكم ؟! .

وأذكر لما كنا صغاراً ، ونسافر في عطلة الصيف إلىٰ بلدنا حلب لزيارة الأهل والأقارب ، كان سيدي الوالد يتابعنا من المدينة المنورة ، ولا يرضىٰ أن نبقىٰ هٰكذا شهراً بدون فائدة ، فكان يكلم الشيخ محيي الدين الحمصي رحمه الله تعالىٰ لمتابعتنا في حفظ القرآن الكريم ، فكنا نذهب إليه يومياً بين العصر والمغرب ، فنحفظ عنده ونراجع .

هٰذا عدا عن متابعته لنا لزيارة المشايخ ، والمدرسة الشعبانية ، وغيرها من الأماكن العلمية ، حرصاً منه ـ حفظه الله ـ على استغلال أوقات فراغنا ، وملئها فيما يفيد .

الدقة في المواعيد :

من الأمور التي ربَّىٰ عليها سيدي الوالد أفراد أسرته ، وكان يلاحظهم عليها جداً : الدقة في المواعيد ، وترتيب الأمور ، وتقديم الأولويات ، ويرىٰ أن هٰذا من أسباب النجاح ، ودواعي الفلاح ، ومن حُرِمها فقد حُرِم خيراً كثيراً ، وكم كان يعتب علىٰ أناس من أهل العلم والفضل ، ولٰكن لا موعد لهم ، ولا ترتيب لأمورهم ، ويقول لي : هٰؤلاء لن يفلحوا ، ولن ينجحوا ، فأراهم كما ذكر لما ذكر .

التدقيق عليهم في ألفاظهم واختيار كلماتهم :

من الأمور الملاحظة علىٰ سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ ، دقته في اختيار ألفاظه ، وتحريه لكلماته وعباراته ، وقد يكون سبب هٰذا مناقشته الدائمة لألفاظ الجرح والتعديل عند الأئمة ، فتأثر بها في حياته العامة .

وقد جرَّ هٰذا إلىٰ تدقيقه علىٰ كلام عائلته ، من عدة جوانب واتجاهات ، فإن كانت كلمة لا تصح لغوياً : نبَّه إلىٰ صوابها ، أو جملة فيها مبالغة : أمر بتصحيحها ، والتخفيف منها ، ويسمع أحياناً كلمات مستعرَبة ، أو مستغربة ، فينبه ولا يرضاها ، ويستبدلها بألفاظ أصلية عربية ، ويضطر أحياناً لمراجعة « القاموس » ، كي يكون الاستدلال صحيحاً ، والاستدراك دقيقاً .

وتراه في أمورنا العامة المتكررة ، ينبّه ويكرر ، ولا يضجر ولا يسأم ، فمثلاً عند أول كلامنا في الهاتف ، أو حين الانتهاء منه ، لا يرضىٰ إلا بقول : « السلام عليكم » ، وكذا عند الدخول إلىٰ مجلس أو الخروج منه ، أو عند الملاقاة والانصراف ، فهٰذه تحية الإسلام ، لا يرضىٰ بها بدلاً .

ترشيد أبنائه من الصغر إلىٰ كتب تناسبهم عمراً وعلماً :

من متابعة سيدي الوالد لأبنائه ، أنه يلاحظ ثقافتهم عمراً وعلماً ، فيعطي كلَّ واحد منا الكتاب الذي يناسبه ، وعند الانتهاء منه ، إما يعطيه كتاباً آخر ، أو يأمره بإعادته ، لترسيخ أمور يهدف إليها الوالد .

فأذكر مثلاً : أنه أعطىٰ أخي عبد الله ـ وكان في أول المرحلة الثانوية ـ كتاب « أدب الدين والدنيا » للإمام الماوردي ، وكان يتابعه عليه ، ويسأله عنه .

كما أذكر : أنه عند انتهائي من المرحلة الثانوية ، وأول دخولي الجامعة ، أعطاني مقالة الأستاذ الأديب محمود شاكر رحمه الله تعالىٰ ، « رسالة في طريق ثقافتنا » ، وأكَّد عليَّ ضرورة قراءتها جداً ، وقال لي : « **أنت في أول طريقك ، فامشِ عليها** » ، وفعلاً قرأتها مرات ، وأعدتها مرات .

ومما يتصل بهٰذا أيضاً : ملاحظته لأحفاده الصغار في تنمية ثقافتهم ، وحبهم للعلم ، فأكون أحياناً عنده مع عائلتي

ليلاً ، فيحفِّظ ولداي محمداً وزاهداً بعض الأحاديث القصيرة التي تناسب تلك الجلسة ، ويسألهما عن الحديث في جلسة أخرىٰ ، كما كان يحفظهما بعض الأشعار التي تناسب أعمارهما وميولهما ، ويكتبها لهما علىٰ ورقة ، وكذا يسألهما لما يراهما ثانية ، فيتابعهما ويشجعهما .

حضور أبنائه معه مجالس العلماء :

من الأمور التي كان سيدي الوالد يلاحظها ويهتم بها ، حضورنا معه ـ ونحن صغار ـ المجالس العلمية ـ التي لا حرج فيها من وجود أمثالنا كي نرى المشايخ الكبار ـ ، فنتعلم من علمهم ، ونتأدب بآدابهم ، فكنا ننتظر هٰذه المجالس ، وإتيان الشيوخ ، فغرس فينا بهٰذا حب العلم ، وحب أهله ، وحب مجالس العلم ، وحب ارتيادها ، وما زال ذكراها في نفوسنا ، والترنم بها علىٰ ألسنتنا ، جزاه الله عنا خيراً .

فأذكر ممن أدركت من الكبار بسبب حضوري هٰذه المجالس وأنا في أول عمري ، السادة الأعلام العلماء ، والأجلة الفضلاء :

السيد أحمد رضا البجنوري ، وكانت ترافقه زوجته ابنة إمام العصر الكشميري ، ومحمد حياة السنبهلي ، والشاذلي النيفر ، والسيد عبد الله الصديق الغماري ، وحبيب الرحمٰن الأعظمي ، وغيرهم الكثير ممن يقارب طبقتهم ، ومن بعدهم من باب أولىٰ ، والحمد لله .

تنبيهه علىٰ ما يراه من الأخطاء بأوقات مناسبة :

من الأمور التي نلاحظها جميعاً علىٰ سيدي الوالد ، عدم سكوته عن الخطأ ، فينبّه عليه مباشرة إن كان الوضع مناسباً ، أو يؤخره للمصلحة ، فكانت تنبيهاته لنا نصيحة لا فضيحة ، مع ترشيد وإرشاد ، وغالباً يكون معها قصة من قصص السلف ، أو ممن بعدهم إلىٰ مشايخه ، توافق تلك الحادثة ، أو تقاربها وتشابهها ، كي ترسخ في ذهن السامع ، فيتذكرها إن قارب الخطأ ثانية فيرجع ، وهٰكذا .

وأحياناً تكون نصيحته بكلمة أو إشارة صغيرة ، فتُفهم وتُغني ، وأذكر مرة أني كنت أقيم الصلاة بحضرته مع بعض الأحباب ، فمشيت خطوات لأمرٍ ، فهمس في أذني وقال لي : « ولا يمشِ » يشير إلىٰ رأي الفقهاء : أن المقيم لا يمشي في حال الإقامة .

ولا ينس ما يريد أن ينبّه إليه ، ولٰكن ـ كما ذكرت ـ يتحيَّن الوقت والفرصة ، فكم وكم يقول لنا حال نصحه : أنت قبل يومين أو ثلاثة ، رأيتك تعمل كذا وكذا ، أو سمعتك تقول كذا وكذا ، ولٰكن لم تأت فرصة أن أكلمك ، فيكلمنا ، وهٰذا كله من حرصه علينا ومتابعته لنا .

أدبه الشديد مع مشايخه :

إن أدب الوالد الشديد مع مشايخه ، واحترامه لهم البالغ ، من

أهم ملامح التربية التي ربَّىٰ عليها أبناءَه وعائلته ، فنرىٰ منه الأدب العالي ، والاحترام الجم لمشايخه ، بل لكل من يتصل بهم ، فنراه يتأدَّب مع أولادهم وأحفادهم ، تأدباً بالغاً ، ويحترمهم احتراماً عالياً ، وخاصة شيخيه الكبيرين الكريمين : فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ .

وبهٰذا الاحترام والتأدب ، علَّمنا أنه يجب علينا احترام مشايخنا تمام الوجوب ، والتأدب معهم كمال الأدب ، وكان يلقننا دائماً وأبداً مقولة العلماء : « **ما فاز من فاز إلا بالأدب** ، **وما سقط من سقط إلا بسوء الأدب** » .

وإن مظاهر الأدب التي رأيتها من حضرة سيدي الوالد ، أو سمعتها عنه مع مشايخه كثيرة النواحي ، متعددة الاتجاهات ، وقد يكون البعض اشترك معه فيها ، وقد يكون انفرد .

ولٰكن سأذكر أمرين اثنين ، لم أرهما عند أحد ، أو سمعت بهما عُمِلا مع أحد ، أمرٌ مع شيخه الأول ، الشيخ عبد الله سراج الدين ، والأمر الآخر مع شيخه الثاني ، الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ .

أما الأمر الأول :

لما نزل فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين إلىٰ بلده حلب عام ١٤٠٤هـ ، بعد إقامته في المدينة المنورة ، لم يتجرأ سيدي الوالد

أن يتصل ويكلم مولانا الشيخ هاتفياً أبداً ـ مع قوة الصلة بينهما ، بل القوة اللامتناهية ـ ، أدباً منه وحياءً ، وتبجيلاً له واحتراماً .

ولكنه كان على صلة دائمة معه ، واستشارة له في كل أموره ، صغيرها وكبيرها ، عن طريق أحد أخص تلامذة سيدي الوالد ، وكذا فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وهو أحد أعمدة المدرسة الشعبانية : فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الإدلبي حفظه الله تعالىٰ ، هٰذا عدا عن متابعة فضيلة الشيخ عبد الله لتلميذه مناماً ، فكان يلاحظه ويرشده ، ويتابعه ويرقبه ، وهٰذا من فضل الله عليه .

ولم يكلم سيدي الوالد فضيلة الشيخ عبد الله طيلة هٰذه السنين ، إلا مرَّة واحدة ، بعد طلبٍ وإذن ، واعتذار لهٰذا التجرؤ ، وكان هٰذا بعد خمس عشرة سنة من نزول مولانا الشيخ إلىٰ حلب ، وكنت أنا الوحيد بجانب سيدي الوالد في هٰذه المكالمة ، ومما أذكر منها : أن سيدي الوالد طلب من شيخه أول الهاتف أن يكون قلبه راضياً عنه ـ ولم يتكلم الوالد غير هٰذه الكلمة ـ ، فصار الشيخ رحمه الله يدعو له دعاء طويلاً مستمراً ، إلىٰ نهاية المكالمة ، رحمه الله تعالىٰ .

وأما الأمر الثاني :

فهو مع مولانا فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، فأمر لا أعرف أحداً يفعله بهٰذا الاستمرار الزمني الطويل ، **وهو أني لا**

أذكر أن سيدي الوالد كلَّم شيخه الشيخ عبد الفتاح هاتفياً وهو جالس ، ولا مرَّة واحدة ، مع كثرة الاتصال فيما بينهما ، وتكراره المستمر ، حتىٰ أصبحنا إذا رأينا سيدي الوالد ردَّ على الهاتف ، ووقف مباشرة ، عرفنا أنه مولانا الشيخ عبد الفتاح رحمه الله ، والذي يعرف أن هٰذا الأمر ـ كما ذكرت ـ طيلة أربعين سنة ، يدرك تماماً رسوخ هٰذا الأدب ، وعمقه في نفس سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ تجاه مشايخه رحمهم الله تعالىٰ .

وأذكر مرَّة أن أحد الإخوة الأكاديميين ، انتقد سيدي الوالد بجلسته المتأدبة أمام الأخ الكريم الشيخ سلمان نجل مولانا الشيخ عبد الفتاح رحمه الله تعالىٰ ، وهو بعمر أحد أولاد سيدي الوالد ، فأجبت هٰذا الأخ المنتقد : **هٰذا الفرق بين تربية المشايخ وتربية الجامعات** .

وهٰذا الأدب من سيدي الوالد مع أساتذته ومشايخه ، وأصحاب الفضل عليه ، غرس فينا أموراً كثيرة ، أموراً قد يكون الوالد قصدها ، وأموراً لم يكن يقصدها ، ولٰكنها سرت إلينا بإخلاصه ، ومشت فينا بصفائه ، حفظه الله تعالىٰ ذخراً لنا وللعلم وأهله .

شخصيّته وقوّته العلميّة

إن التربية العلمية الأصيلة ، التي تدرجت على سُلَّمٍ علمي سليم ، تحت إشراف من الأساتذة مستمر دقيق ، وشغف من الطالب أكيد ، لا بد أن تنتج لنا : شخصية علمية قوية ، مستقلة بذاتها ، منفردة بكيانها ، لها حسُّها العلمي ، ونَفَسها الألمعي ، مع تمكن في العلوم ، وتنوع في الفنون ، وقوة علمية ، تحاكي الأوائل ، وتتخطى الأواخر ، مع فهم للمراد ، وكشف للحقائق ، وتبيين للدقائق ، كل هٰذا بأسلوب سهل ، وعبارة واضحة ، وجملٍ مفيدة ، لا مبالغة فيها ولا لغو ، ولا غموض ولا حَشو ، سليمةً نحوياً ، عالية بلاغياً ، مفيدة فقهياً ، صحيحة حديثياً ، دقيقة جرحاً وتعديلاً .

واضحة المعنىٰ ، خفية المغزىٰ ، بعيدة المرمىٰ ، لا يفهمها إلا الفطن ، ولا يدركها إلا الزكن ، إمام يحكي أئمة ، وعلم يعلو على الأسنة ، وأنا المحاسب أمام الله .

تتميز شخصية سيدي الوالد العلمية ، وتتضح أعلىٰ ما تتضح أولاً ، بجمعه بين التلمذة على الشيخين الكبيرين ، والعَلَمين الشهيرين ، فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين ، وفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالىٰ ، ومن يعرف المنهج العلمي الدقيق الذي يتبعه كلٌّ منهما ، يدرك حقيقة ما أقول ، وبُعد ما أرمي إليه ، مع الأُخوَّة العالية ، والزمالة الغالية بين كليهما .

فاستطاع سيدي الوالد ـ بما رباه عليه ـ أن يجمع بين المنهجين ، ويمزج بين الطريقتين ، مع علم كلٍّ منهما خصوصية الوالد عند أخيه ، وتقدمه عند صاحبه ، فلهٰذا وقت ، ولذاك آخر ، فصار المقدم عندهما ، والوارث لكليهما ، وهٰذا من أبرز استقلال شخصيته .

لشخصية سيدي الوالد العلمية : اتجاهات عديدة ، ونواحٍ فريدة ، علمية وتربوية ، مع تشعُّب وتفرُّع كل منها ، وهٰذا يتضح من تنوّع كتبه ، ويُستشف من فائض تعليقاته (١) .

إن هٰذه الشخصية العلمية الفذة : لم تكن وليدة يوم وليلة ، أو مصاحبة شهر وسنة ، أو قراءة صفحة وصحيفة .

لم تأت من نوم طويل ، ولهوٍ حتىٰ ولو خفيف ، وتشبيع للرغبة ، وتلبية لمتطلبات النفس .

ما بلغ مبتغاه بالتواني ، ولم ينل ما ناله بالأماني ، إنما أتىٰ هٰذا كله نتيجة حرقة واحتراق ، وتشوق واشتياق ، نبعا من الذات ، مع جد بالليل ، وكفاح بالنهار ، صاحبهما تفرغ واقعي ، وصحبة طويلة ، وملازمة أكيدة ، مع استفادة للحظات ، ومحاسبة للأنفاس ، انطبق عليه قول ابن عطاء الله : « **من لم تكن له بداية محرقة ، لم تكن له نهاية مشرقة** » .

وبهٰذه المنح الربانية ، تولدت هٰذه القوة العلمية ، والعقلية

---

(١) وسأعرض لهٰذا عند دراسة كل كتاب من كتبه إن شاء الله تعالىٰ .

الألمعية ، وصار أساتذته يراعونه ويلاحظونه ، ويحسبون له الحساب ، ومن هٰذا :

ـ أن الوالد كان طالباً في الصف الثاني عشر ، يقرأ أمام أستاذه ، الأستاذ الأديب عمر يحيىٰ ـ وهو من هو في علوم العربية ـ ، فجاءت معه كلمة « حزيران » ، فقرأها الوالد بفتح الحاء ، فاعترض أحد الطلبة ، وسأل أستاذه : هل هي بفتح الحاء أم بضمها ؟ ، فقال الأستاذ عمر يحيىٰ : أنا أحفظها بالضم ، ولٰكن أنا أخاف من هٰذا الطالب ، فسكتُّ ، فقال له الوالد : بالفتح ضبطها صاحب « المختار » .

ـ وعندما كان الوالد في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، كان في محاضرة العلامة الشيخ أمين المصري رحمه الله تعالىٰ ، فسأل الشيخُ الوالدَ عن مسألة ، فأجابه الوالد بكلمات يسيرة ، ولٰكنها الجواب الشافي ، والخلاصة الكافية ، فتعجب الشيخ جداً وقال مُكبِراً له : **هٰذه حلب ماذا ترسل لنا ؟!** .

ـ وكنت مرة مع شيخنا فضيلة العلامة سيبويه عصره ، الشيخ أحمد القلاش رحمه الله تعالىٰ ـ وهو شيخ للوالد ومن طبقة شيوخ شيوخه ـ فقال لي : أنا لا أخاف من أي شيخ في النحو ، ولا أحسب له حساباً إلا إذا جلست أمام الشيخ محمد عوامة ، فإني أحسب له حساباً ، وأدقق في كلامي .

وهٰذه القوة العلمية ، والشخصية المستقلة الذاتية ، التي يتمتع بها سيدي الوالد ، هي التي أورثت الثقة في نفوس أساتذته ، ودعتهم إلى الاعتماد عليه ومشاورته .

ومن أجلِّ ما أذكر من هٰذا الاعتماد والثقة ـ عدا النسخ والتصحيح ، والمقابلة والتدريس ـ : أن مولانا الشيخ عبد الفتاح رحمه الله تعالىٰ ، عندما كان في الرياض مع عائلته الكريمة ، وكان الوالد إذ ذاك في حلب ، نزلت عائلة الشيخ إلى الاصطياف في حلب ، فأمر الشيخ رحمه الله نجله الأكبر الأستاذ محمد زاهد أن يأخذ نسخة الوالد من « مقدمة ابن الصلاح » ، ويفرِّغ ما بها من تعليقات وحواشٍ ، كتبها الوالد علىٰ نسخته إلىٰ نسخة أخرىٰ ، ويرجعها معه إلىٰ والده إلى الرياض .

ومولانا الشيخ رحمه الله هو من هو ، علماً واعتداداً ، ولٰكنه التواضع ، وإعطاء الثقة ، والاعتراف بالعلم ، ولولا هٰذه الصفات لما كتب رحمه الله تعالىٰ تلك الكلمات الشهيرة عن سيدي الوالد حينما وصفه في تعليقة له في كتابه « قواعد في علوم الحديث » : بـ : « **تلميذ الأمس وزميل اليوم** » ، وعمر الوالد آنذاك اثنان وثلاثون سنة ، وكذا ما وصفه الوصف العلمي العالي في تقدمته لكتاب الوالد « أثر الحديث الشريف » في طبعته الأولىٰ بـ : « **الجهبذ المحقق** » ، وأيضاً كان عمر الوالد في حينها دون الأربعين .

رحم الله تلك النفوس الطيبة الطاهرة ، والمخلصة الصافية ، التي أسست وعلَّمت ، ودرَّبت ودرَّست ، فولدت وأنجبت ، وأخرجت وأعقبت ، فيا له من والد ، ويا له من ولد .

ذكر لبعض أفكاره وآرائه

لقد أكرم الله تعالىٰ سيدي الوالد برجاحة عقل ، ووفور ذهن ، وبُعد نظر ، مع خبرة بالأيام ، ودراية بالتاريخ والزمان ، يصاحب هٰذا حدس علمي ، وحسٌّ نقدي .

يشهد لهٰذا ويعرفه كل منصف قرأ كتبه ، وكل محب حضر مجلسه ، ومن يدرك مراميه ، ويفهم مغازيه ، ويقف علىٰ مدلول كلامه ، يرىٰ تجسيد ما قلت وأكثر .

كلامه مؤسَّس مؤصل ، مدعم موثق ، تربوي علمي ، وتوجيهي فكري ، وأحياناً يكون نقدياً أدبياً ، وعلىٰ قلة : يكون نقدياً لاذعاً ، بغيرة محرقة ، ودمعة قاهرة حاضرة ، لمن تطاول من المعاصرين ، وظنَّ أن الشذوذ سلم الوصول ، والندرة أُولىٰ درجات القبول .

ـ يحاول سيدي الوالد دائماً تثبيت الناس على المنهج الأصيل ، وإبقاء ثقتهم عامة بالأئمة المتقدمين ، وخاصة أصحاب المذاهب المتبوعين ، والرد كل الرد علىٰ من يحاول الزعزعة بهم ، أو الرد عليهم ، بدعوى الكتاب والسنة ، فيبين عوارهم ، ويفضح جهلهم ، ويكشف زورهم ، أسد في هٰذا الأمر مغوار ، وشجاع مقدام كرار ، لا يرى الخروج عن المذاهب الأربعة أبداً ، ولا التلفيق بينها وتتبع رخصها ، وما هٰذا الأخير إلا تتبع هوىً في النفس ، ومرض بالفؤاد .

فينتقد هـٰذا أشد من انتقاده ذاك ، ويقول : إن هـٰذا يوصل إلى الزندقة ، وهتك الحرمة ، وفقدان القداسة ، ويفضح صاحبه في عدم سلوكه الاستقامة العلمية ، وعدم التدرج في التلقي ، فأول أمره قفز على الأسطحة ، وآخر أمره تردٍّ في الهاوية .

ـ عالج سيدي الوالد أمر ضرورة التمذهب أتم معالجة ، وبيَّنه أتم بيان بكتابه الماتع الأول : « أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء » ، الذي فاض فيه وأجاد ، وحيَّر به العقول وأفاد ، ثم أتبعه بأخيه وصنوه : « أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين » ، فكان كسابقه سمعةً وبُعد صيت ، وتأسيساً وتأصيلاً ، وبهـٰذين الكتابين يتضح ديدنه الفكري العلمي ، الذي يحاول تثبيته دائماً ، وتركيزه جاهداً ، ليلاً ونهاراً ، لتستقر الأمة علمياً ، وتهدأ فكرياً ، فيعرف بهـٰذا الأمر كلٌّ قدره ، ويلزم حدَّه ومقداره .

ـ ويتصل به تماماً ويتبعه ، بل هو نـدُّه وقسيمه ، وصنوه ولصيقه ، احترام كافة الأئمة الأعلام ، وعدم التجرؤ عليهم ، أو النيل منهم ، فهم أئمة الإسلام وحماته ، وناقليه وسياجه ، والغض منهم : غضٌّ لما يحملون ، وانتقاص لما يبلِّغون ، فهم أعلامه المرفرفة ، وقناديله المضيئة ، وأيُّ عاقل يُنَكِّس أعلام دينه ، ويطفئ قناديل شرعه ، فالعقل هنا واجب ، والاعتذار عنهم أوجب .

وأذكر أني بحثت مع سيدي الوالد كلام مولانا الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني حول قصة الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ ،

وأنه استُفتي في ولد وبنت رضعا من بقرة واحدة هل تثبت الحرمة بينهما ؟! فقال : نعم ، وأن الشيخ محمد عبد الرشيد ارتضىٰ هٰذه القصة ولم ينتقدها ، ونقل الشيخ محمد عبد الرشيد عن المَقْبَلي ـ الزيدي ـ ذم البخاري ، فلم يرتض سيدي الوالد هٰذه القصة ولا النقل عن المَقْبَلي أبداً ، وقال لي كلمة حكيم عاقل ، يدرك مرامي الكلام ويعي مغازيه : من أجل نصرة مذهب أنقل عن إنسان لا أرتضيه ؟!

ثم ذكر لي أن المَقْبَلي هٰذا أراد هدم « صحيح البخاري » اعتماداً علىٰ رؤيا منامية ! وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ـ أما ديدنه التربوي العلمي الذي لا يكاد يخلو منه مجلس أو محاضرة ، أو اجتماع أو مسامرة ، إلا تكلم به وصرَّح ، وأشار إليه ولمَّح ، فهو ما فصَّله وبيَّنه وأظهره وأوضحه في كتابه النيِّر الوقاد ، العجيب العجاب « معالم إرشادية لصناعة طالب العلم » ، فهو بكل عناوينه ، خلاصة آرائه التربوية ، التي يرىٰ أن يمشي عليها طالب العلم ، فتكون مِشيته ـ إن شاء الله ـ بخطىً وثيقة ، وعلىٰ قواعد راسخة ، سالكاً مسالكه ، ومتدرجاً مدارجه ، علىٰ نفس معالم أئمتنا السابقين ، ومنارات علمائنا العاملين ، فيسلم بهٰذا مما يعكر عقله ، ويشوش ذهنه ، فيكون إن شاء الله سليماً معافىً ، صحيحاً مشافىً ، لا تضارب في نفسه ، ولا تخبط في رأيه ، فيسلم ممن قصدهم الوالد وعناهم ، وحاول دلَّهم وإرشادهم ، بكتابه « أثر الحديث الشريف » وتوءَمه « أدب

الاختلاف » ؛ لأنَّ من تأسس أولاً تربوياً ، سلمت تربيته فكرياً ، وصحت مساراته علمياً ، وأراح معاصريه ، فلم يتعبهم بتتبع شذوذاته ، وبيان هفواته ، وكشف ضلالاته ، بل ساعد في البناء ، وشارك بالأساس ، تأسيس جيل ، وبناء أجيال ، ولٰكن التوفيق عزيز ، وإدراك العواقب فرد غريب .

ـ ومن أفكاره العلمية التي يغرسها في طلابه ومساعديه : أن تخريج الأحاديث يكون لإثبات الحديث ، وتحقيق وجوده ، لا لرده بأي سبب ونفيه .

ومعنىٰ هٰذا : أنه يرى المخرجين المعاصرين (أصحاب فهارس التخريج ، الذين يبدؤون بـ « صحيح البخاري » ، وينتهون بـ « فردوس الديلمي » ، و« تهذيب الكمال » !!) ، إذا رأوا أي إشكال في أحد رجال السند ـ قوي الإشكال أم ضَعُف ـ فإنهم يبادرون إلىٰ تضعيف الحديث مباشرة ، والتكلم عليه ، والنقد له ، فالتخريج عندهم خُطىً يسيرون عليها ، ورسوم لا يخرجون عنها ، أما أن يبحثوا عن عاضد يعضده ، أو متابع يتابعه ، أو يغربلوا الألفاظ الجارحة ، ويقرِّبوا بين ما يبقىٰ منها ، إلىٰ ألفاظ التعديل والتثبيت ، فيقووا به الحديث ، ويثبتوا به المعنىٰ ، فهم بعيدون عن هٰذا الأمر ، غير مدركين أهميته ، ولا عارفين ضرورته .

ـ ومن الأفكار التي يربي عليها سيدي الوالد تلامذته : ما يسميه بدخائل علم الجرح والتعديل ، فهو يرىٰ أنه ليس كل

قول يؤخذ ، ولا كل رأي يعتمد ، بل على الطالب المراجعة والتحقيق ، والبحث والتنقيب ، وراء المراتب والأقوال ـ وخاصة منها الجرح ـ ، فهناك دخائل يجب ألا يغفل عنها الطالب ، وخفايا يجب ألا تغيب عنه ، وهٰذا يظهر ويتضح من تعليقاته ودراساته علىٰ كتب الحديث والرجال ، وخاصة في « المصنف » و« الكاشف » .

ـ ومن الأفكار العلمية التي يوضحها دوماً ، ويزيل اللبس عنها ، اعتماد توثيق الإمام ابن حبان للرجال ، فهو يرىٰ من المعاصرين : التسليم بما شاع ، أن الإمام ابن حبان من المتساهلين في توثيق الرجال ، فيذكر من لا يَعرف ، ومن لا يُعرف ، وعلىٰ هٰذا فلا يعتمد توثيقه ، ولا تؤخذ آراؤه ، فدافع الوالد عنه أشد دفاع ، وأظهر رأيه ، وأبان حجته في مقدمة « المصنف » وكذا مقدمة « الكاشف » ، فيُرجع إليهما ليستفاد ، وليُعرف كيف يُفهم كلام العلماء[1] .

ـ ومما يؤكد علينا دائماً ـ علىٰ كل زائريه تقريباً ـ : أن أمتنا الإسلامية بحاجة إلىٰ خمس مستويات لطلبة العلم :

المستوى الأول : من يسدّ المحراب والمنبر ، ويكون هو شيخاً للحي وأهله .

---

(١) بل أفرد سيدي الوالد هٰذه المسألة بجزء لطيف طبع ضمن سلسلة « أبحاث حديثية هادفة لتصحيح المسار العلمي » .

المستوى الثاني : مشايخ المدينة والبلدة .

المستوى الثالث : مشايخ علىٰ مستوى الدولة ، فيحلُّون مشاكلها الدينية ، ومعاملاتها المستجدة .

المستوى الرابع : مشايخ علىٰ مستوى العالم الإسلامي .

المستوى الخامس : مشايخ متخصصون في رد الشبهات المثارة حول الدين الإسلامي ، لكل علمٍ علىٰ حدة ، بل لكل تخصص من كل علمٍ علىٰ حدة .

❋ ❋ ❋

منهجه العامّ في كتاباته

إن المتانة العلمية الرصينة ، والمنهج العلمي الأصيل ، والرؤية الحصيفة النبيهة ، التي أكرم الله بها سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ ، هٰذه العناصر الثلاثة : هي أسُّ منهجه العلمي وأساسه ، وعماده وركازه .

فالمتانة العلمية التي يندرج تحتها ، سعة الاطلاع بكل اتجاهاته ومعانيه ، ومعرفة مدلولات النصوص وفهمها ، وكيفية الاستشهاد بها واستخدامها ، مع الصياغة الأدبية ، والأسلوب العالي . . .

ثم المنهج العلمي الأصيل الذي رُبي عليه ومشىٰ ، دراسة وتدريساً ، فهماً وتركيزاً ، ثم تخريجاً وتحقيقاً ، تنكيتاً وتدقيقاً ، علىٰ أيدي أئمة أعلامه ، وأساطينه وكبار رواده . . .

يصاحب هٰذا : رؤية نبيهة ، ونظرة حصيفة بواقع الأمة وأحوالها ، وطلاب العلم واحتياجاتهم ، مع إدراك خطورة ما تعيش به الأمة من اضطراب علمي وفكري وتربوي ، استشرىٰ بجميع الطبقات ، وانتشر بكافة الفئات . . .

ثم مع توفيق الله تعالىٰ ـ أولاً ـ المصاحب لسيدي الوالد ، حيث يحدد الداء ويصف الدواء ، وصفة طبيب حاذق ، وخبير ماهر . . .

بكل هـٰذا جعلت كتبه تقصد ، وآراءه تدرس ، وأفكاره تُؤَمّ . . .

وسأعرض الآن ـ إن شاء الله ـ ملامح عامة عن منهجه العلمي في سائر كتاباته ، ثم أعقب ذٰلك بمنهجه العلمي في التأليف ، ومنهجه العلمي في التحقيق ، **فأقول** :

إن منهجه العلمي العام في سائر كتاباته ـ سواء كانت تأليفاً أم تحقيقاً ـ يمشي علىٰ نسق معين ، وخطة واضحة ، ودقة عالية ، مع صعوبة بالغة ، يشهد لهـٰذا من صاحب ومارس ، وسأوضح هـٰذا بنقاط :

١ ـ إن سيدي الوالد دقيق في كلامه وعباراته ، يوجز وقت الحاجة ، ويسهب للضرورة ، قوي في أسلوبه ، واضح في منهجه ، يلاحظ الكلمة بل الحرف ، فالحرف عنده له دليل ومعنىً ، وتقديم كلمة وتأخير أخرىٰ لها مقصد ومغزىً .

٢ ـ يدعم آراءه وأفكاره بأقوال العلماء السابقين ، والأئمة المتقدمين ، وكلما قدم النقل كان هو المقدَّم ، فلا ينقل عن متأخر إذا وجد مفاده عند متقدم ، فكلامهم درعه ، وفهمهم حصنه .

٣ ـ يحاول جاهداً ألا ينقل نقلاً إلا من مصادره الأصلية ، مع مقابلة ومطابقة تامة ، ويؤكد علىٰ هـٰذا أشد تأكيد ، بل يلزم نفسه ومن حوله بهـٰذا ، حتىٰ قال لي مرَّة : « إن كان الناقل إمام الأئمة ، فهو على العين والرأس ، **ولٰكن لا بد لي أن أراجع نقله** ، **وأتثبت منه** » ، وهـٰذا إن كان مصدر النقل مطبوعاً ، أما إن كان المصدر

مخطوطاً : فأيضاً لا بد وأن يسعىٰ لمراجعته ، فيطلب المخطوط ـ إن كان الحصول عليه سهلاً ميسوراً ـ ، فيراجع ويقابل ، ويتثبت من النص ويطابق ، كي يسلم نقله ، ويصح عزوه .

٤ ـ لا يعزو سيدي الوالد نقوله إلا إلى المصادر الأصلية القديمة ، فيربط نفسه وقارئ كتبه بأئمته ، فهم العمدة ، وإليهم المرجع ، فإن رأىٰ نصاً ـ مثلاً ـ عن معاصر ينقله عن متقدم ، وقد وافق هٰذا النص ما أراده الوالد : فإنه يراجع هٰذا النص في ذٰلك المصدر ، ويتأكد من صحة النقل وسلامته ، ثم يعزو إلى المصدر الأصيل مباشرة .

٥ ـ عند عزوه إلىٰ مصادر النصوص ، يقدم العزو إلى الكتاب القديم المسند على القديم غير المسند ، ويختاره ، ولا يذكر غير المسند إلا لنكتة .

٦ ـ يختار سيدي الوالد في طريقة عزوه إلى المصادر ، أن تكون طبعاته صحيحة أولاً ، ثم متداولة مشهورة ثانية ، ولا يعزو إلىٰ طبعات صحيحة مفقودة أو نادرة مع وجودها في مكتبته ، لصعوبة رجوع القارئ إليها .

٧ ـ يحاول أن تكون كتابته في العزو بطريقة توافق أكثر الطبعات ، تسهيلاً للقارئ علىٰ مراجعة ما يحتاج إليه ، وعدم احتياجه إلىٰ شراء ما ليس عنده .

٨ ـ يعزو كل نقل إلىٰ كتبه المختصة به ، فكلمة لغوية تراجع في كتب اللغة ، ومسألة أصولية تراجع في كتب الأصول ، بل

أدق من هٰذا : إن كانت المسألة الفقهية أو الأصولية شافعية ـ مثلاً ـ فلا يراجعها إلا في كتب الفقه أو الأصول الشافعية ، وكذا إن كانت مالكية أو غير ذٰلك ، ولا يرضىٰ أبداً الرجوع للعزو إلىٰ كتب الفقه المقارن ، فلكل مذهب كتبه ومصادره .

٩ ـ يرجع ـ إن احتاج الأمر ـ إلىٰ أهل الاختصاصات الأخرىٰ ، ويستشيرهم ، بل ويستكتبهم أحياناً ، فنراه عندما حقق كتاب « قلائد الخرائد » لباقشير الحضرمي ، في الفقه الشافعي ، استكتب الطبيب عبد الله الكتاني في بحث التدخين ، ونسب ذٰلك إليه ، وهٰكذا تكون كتبه معتمدة ، وآراءه موثقة .

١٠ ـ يريح القارئ مما قد يعترضه من إشكالات ، فيحل له الغموض ، ويكشف له العبارة ، ويضبط له النص ، ولا يتركه في حيرة من أمره ، وانغلاق في فهمه ، ويكرر القول علىٰ طلابه : **المحقق خادم للقارئ** .

١١ ـ يهتم سيدي الوالد بعلامات الترقيم جداً ، ويسميها لنا : علامات التفهيم ، ويقول : **إن صحة وضعها** ، **وسلامة استخدامها** ، **هي نصف التحقيق** .

١٢ ـ دقيق حتىٰ في اختيار ألفاظ كتابة مراجع بحثه ، فتراه ـ مثلاً ـ عند ذكر طبعة كتاب معين ، إن كان التحقيق لم يرق له : فلا يقول : حققه فلان ، إنما يقول : طبعة فلان .

١٣ ـ يهتم بالفهارس العلمية جداً ، ويحب التنوع بها ، تسهيلاً للباحث ، وإسراعاً في وصوله إلىٰ بغيته .

١٤ ـ بجانبه كتب لا تفارقه تأليفاً أو تحقيقاً ، كقواميس اللغة ، و« نهاية » ابن الأثير ، و« مفردات الراغب » .

١٥ ـ يخاطب سيدي الوالد في كل ما يكتب : العقل والروح معاً ، فلهٰذا يستجيب له العقل ، وينبسط له الفؤاد ، وتنقاد له الروح .

منهجه العلميّ في التّأليف

أما منهجه العلمي في التأليف ، ومراحله فيه ـ إضافة إلىٰ ما سبق من منهجه العام في الكتابة ـ ، فألخصه بنقاط عدة :

١ ـ يحدد سيدي الوالد الموضوع الذي يرى الكتابة فيه ملحة ، والحاجة إليه ماسَّة ، سواء أكانت علمية تخصصية ، كـ « حجية أفعال النبي صلى الله عليه وسلم » ، ودراسة حديثية مقارنة لـ « نصب الراية » ، و« فتح القدير » ، و« منية الألمعي » ، أم علمية فكرية : كـ « أثر الحديث الشريف » ، و« أدب الاختلاف » ، أم علمية تربوية : كـ « معالم إرشادية لصناعة طالب العلم » ، أم علمية ثقافية للعامة ، كـ « شرح الأحاديث القدسية » .

٢ ـ يجمع المصادر التي تناولت هٰذا الموضوع ، أو التي هي مظنة لتناول الموضوع ، ولسعة اطلاعه ، فإننا نرىٰ من مصادره في أبحاثه كتباً ليست مظنة لما يكتب ، وهٰذا يرجع إلىٰ تقييده للفوائد وقت القراءة ، سواء في قصاصات ، أو علىٰ أغلفة الكتب ، فتكون وقت الحاجة إليها سهلة المتناول ، قريبة المأخذ .

٣ ـ يستوعب القراءة في الموضوع استيعاباً كاملاً ـ وهٰذا قبل بدء الكتابة ـ ، كما أنه يستوعب استيعاباً شاملاً ما في المصادر المجموعة ، ويضم إلىٰ هٰذا وذاك ما في ذاكرته سابقاً ، فيكون موضوعه تام الأطراف ، متكامل البنيان .

٤ ـ من عادته قبل بدء الكتابة : أن يخط خطة لبحثه ، فيركز أصوله وفروعه ، وأساسياته ومسائله ، مع تشجيره له تشجيراً علمياً منطقياً ، كي يسهل استيعابه ، ويشمل موضوعاته .

٥ ـ يكثر سيدي الوالد من الاستشهاد بالآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، مع حسن استدلال ، وسلامة فهم ، وجودة عرض ، فهما أساس المراجع ، وأصل النقول .

٦ ـ يربط سيدي الوالد القارئ بعصره وواقعه ، فيكثر من ذكر قصص واقعية حصلت معه أو مع أحد شيوخه ، لها علاقة وطيدة ، وصلة أكيدة بما يكتبه ، أو يبحث فيه ، فتكون الكتابة أنفع ، وصلتها بالروح أمتع .

منهجه العلميّ في التّحقيق

إن المنهج العلمي الذي مشىٰ عليه سيدي الوالد في تحقيقاته ، وارتضاه لنفسه في تدقيقاته ، منهج مرُّ المذاق ، علقم الطعم ، صعب المنال ، وَعِر المسلك ، متفرع الجنبات ، لا يستطيعه إلا من مُنح علماً عريضاً ، ونفساً عميقاً ، وصبراً طويلاً ، يسابق صبره علمه ، ويكسر دأبه ضجره ، ولهٰذا أنتج سيدي الوالد وأخرج ، وحقق أمهاتٍ وعلق ، وأشير له بالبنان ، وسارت بتحقيقاته الركبان ، ووُصِف بما وصف به ، لصبره علىٰ مرارة التحقيق ، وعذب المراجعة والتدقيق ، ومن يراه أياماً يحقق قولاً ، ويدقق نقلاً ، ويراجع المصادر ويقلب المراجع ، فلا تتضح له المعاني ، ولم تتناسق له المباني ، فيعيد الكَرَّة ، ويغيِّر النظرة ، علَّ وعسىٰ ، فيفتح الله عز وجل بعدها بما يفتح : يعلم صدق قولي ، وصحة مقولتي ، واشتهر قول العلامة الأعجوبة الموسوعي الندرة ، فضيلة الشيخ محمد سعيد الطنطاوي ، حفظه الله بخير وعافية : « **لا أعلم علىٰ وجه الأرض أعلم منه في علم التحقيق** » .

وسأعرض إن شاء الله منهجه العلمي في التحقيق ، مضيفاً إلىٰ ما كتبته أولاً من منهجه العام في كتاباته :

١ ـ يحاول سيدي الوالد أولاً في كل كتاب يريد أن يحققه أن يحصل علىٰ نسخة المؤلف ـ وخاصة الأخيرة منها ـ ، فيبحث

عنها بحثاً حثيثاً ، ويفتش ويسأل وينقب ، فإن استطاع الحصول عليها ، فذاك بغيته ومناه ، وقد أكرمه الله عز وجل في عدد من تحقيقاته ، فحصل علىٰ نسخة المؤلف في : « تقريب التهذيب » ، و« الكاشف » ، و« مجالس ابن ناصر الدين » ، و« القول البديع » .

وبهـٰذه المناسبة أقول : إن نسخة المؤلف التي يرىٰ سيدي الوالد أن يُحرص عليها ويُعتمد : هي التي تكون قد بقيت تحت يد مؤلفها ، يزيد فيها وينقص ، وينقح فيها ويصحح ، ويقرؤها علىٰ أصحابه ، ويقرؤونها عليه ، فهي التي ينبغي أن يُسعىٰ إليها .

والغرض من هـٰذا واضح لذاته ، ولأمر علمي آخر ينبني عليه ، هو :

أن المؤلف قد يكون ألّف هـٰذا الكتاب في وقت مبكر من حياته رحمه الله ، قبل أن يُوصف بالإمامة في العلم ، والحفظ والحجية بأحكامه وآرائه واختياراته ، فحينما تبقىٰ هـٰذه النسخة تحت يده ، وتنقيحاته ظاهرة عليها ، يدلنا ذٰلك على استقرار رأيه العلمي الذي في هـٰذا الكتاب ، وإلا فالاحتمال وارد أن يكون قد عرض له اختيار آخر .

وهـٰذا أمر مشهود من واقع علمائنا رحمهم الله تعالىٰ ، ومن واقع أنفسنا .

وسيدي الوالد يرىٰ حرص كثير من الباحثين على الحصول علىٰ نسخة المؤلف من الكتاب الذين يريدون تحقيقه ، لٰكنه كان ينبهنا إلىٰ ضرورة هـٰذه الملاحظات ، فإنها علمية وفنية .

٢ ـ إن لم يتيسر له الحصول علىٰ نسخة المؤلف يبحث عن أحد فروعها ، من نسخة نقلت عن نسخة المؤلف ، أو نسخة قوبلت علىٰ نسخة المؤلف ، فلا تقوم مقامها بالكلية ، ولٰكن يستأنس بها استئناساً عالياً .

٣ ـ إن لم يستطع الحصول علىٰ نسخة المؤلف ، أو فرع عنها ، يبحث عن نسخة كانت بين يدي إمام من الأئمة الأعلام ، فغالباً ما تكون مزينة بالحواشي ، مجملة بالسماعات ، دقيقة مصححة ، فتقوم مقام الأصل أو الفرع ، بمقامها والاعتماد عليها .

٤ ـ إن حصل علىٰ نسخة المؤلف ، فإنه يعتبرها هي الأصل ، وإن لم يحصل عليها فالأصل عنده هو الفرع ، وإن لم يحصل علىٰ هٰذا أو ذاك ، فالأصل ما كانت عند إمام من الأئمة ، أو هم كلهم سواء .

٥ ـ يعتمد الأصل اعتماد تاماً ، فيثبته كاملاً في الأعلىٰ ـ حتىٰ لو كان خطأ ـ إلا إذا كان مما يُقال عنه : سبق قلم الناسخ ، يعني أنه غير مراد ، ويشير إلىٰ باقي المغايرات ، أو إلىٰ صوابه في التعليق .

أما إن لم يكن هناك أصل يعتمد ، فيقوّم النص من النسخ جميعاً ، ويشير إلىٰ ذٰلك تعليقاً ، وإن اتفقوا جميعاً علىٰ عدم الصواب الظاهر ، وكان الخطأ عندهم واضحاً ، فإنه يثبت ما يراه صحيحاً سيلماً في الأعلىٰ ، وينبّه إلىٰ ذٰلك في التعليق .

٦ ـ يثبت ما يراه من حواشي المخطوطات كاملة ، ولا يضيّعها

على القارئ الكريم ، كي لا يحرمه إفادات الأئمة العلماء ، بل ينتقد من لا يكتبها أشد انتقاد ، ويعتب عليه أشد العتب .

٧ ـ دقيق في وصف المخطوطات التي يعتمدها أو يرجع إليها ، كي يعطي القارئ صورة واضحة ، وبه تتبيّن مكانتها ، ومدى الثقة بها .

٨ ـ دقيق شديد في مقابلة النسخ الخطية ، فهو في جميع كتبه لا يرضىٰ أن يقابل أحد مكانه ، أو تفوته كلمة من المقابلة ، فيحضرها بنفسه ، ويراقبها بنظره .

٩ ـ يشير إلىٰ كثير من المغايرات ، والتي ليس لها فائدة أو معنىً ، لا يرهق بها حواشي الكتاب ، فيتركها ولا يثبتها .

١٠ ـ يهتم بربط الكتاب أوله بآخره ، وكذا آخره بأوله ، فإن تكرر معنىً أو مبحث ، أو فائدة أو عنوان ، فإنه يحيل إليه ، ويوفق بينهما ، فيبقى الكتاب سبيكة ذهبية ، محكمة الاتصال ، متينة البنيان .

١١ ـ يخرج الأحاديث تخريجاً يلائم طبيعة الكتاب وحاله ، ووضعه وموضوعه ، فليس كل كتاب يكون تخريجه للحديث مطولاً ، كما أنه ليس كل كتاب يصح أن يكون تخريجه مختصراً ، وليس كل كتاب يبين فيه درجة الحديث ، وليس كل كتاب يحكم فيه على الحديث ـ ما لم يكن موضوعاً ـ ، فالتخريج ذوق ، والتعامل مع الكتاب فن .

١٢ ـ شخصيته العلمية المتينة ظاهرة جداً في تحقيقاته وتعليقاته ، فهو ليس ككثير ممن يدَّعي التحقيق ، همه إثبات المغايرات المفيدة وغير المفيدة ، إنما هو عالم مشارك ، يشارك المؤلف بعلمه ورأيه ، لغة وفقهاً ، وأصولاً وحديثاً ، وعقيدة وغير ذٰلك ، فتراه إما موافقاً مؤيداً ، وإما منبهاً ومناقشاً ، وإما مستدركاً ومعقباً .

١٣ ـ يحاول أن يغني القارئ عن كل الطبعات السابقة ، فيستوعب حسنات من قبله ، ويزيد عليها من عنده ، فتخرج نسخة نفيسة كاملة ، لا يحتاج القارئ إلىٰ غيرها .

أسانيده وإجازاته

لم يتجه سيدي الوالد في حياته العلمية ـ كعادة علماء بلده ـ إلىٰ جمع الإجازات والاهتمام بالأسانيد ، بل كان طلب العلم هو الأصل ، ودراسته هي الأساس ، وإن حصلت الإجازة عرضاً بعد ذٰلك فلا حرج ، بل هو خير ، وأذكر لذٰلك : أن سيدي الوالد مع شدة صحبته وملازمته لمولانا الشيخ عبد الله سراج الدين ، لم يطلب منه الإجازة إلا بعد سنوات طويلة ، فبعد أن انتهى الوالد من الدراسة في الشعبانية ، وأصبح مدرساً في المدرسة ، وارتقىٰ بها تدريساً ، أوكل إليه مولانا الشيخ قراءة وتدريس « صحيح مسلم » للطلبة ، وعند ذاك الوقت استجاز الشيخ فأجازه ، وكان مرَّ علىٰ صحبته له قرابة العشرين سنة .

حصل سيدي الوالد علىٰ إجازات عديدة من كبار مشايخ عصره ، وأساطين علماء زمانه ، ولو اهتم بهٰذا الأمر من أول طلبه ، وبداية نشأته ، لحصل على الأعلىٰ منهم طبقة ، والأقدم منهم زماناً ، ومع هٰذا أكرمه الله بما أكرمه ، وتفضل عليه وفضله .

أما ذكر مشايخه ومن حصل على الإجازة منهم ، فإن أوسع ما ذكره الوالد هو عن نفسه من تعداد شيوخه ، ما كتبه ـ امتثالاً ـ لفضيلة العلامة الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله تعالىٰ بخير

وعافية ، إجازة له ، ثم تدبجاً معه ، فأنا أورد الإجازة كاملة كما كتبها سيدي الوالد مع طولها ، لما حوته من الفوائد والفرائد ، وطوت عليه من النوادر والخرائد ، ثم أضيف إليها أسماء علماء آخرين ، حصلت الإجازة بعدُ من طرفهم ، حفظ الله الجميع ، قال سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ :

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمٰن الرحيم ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ سيد الأولين والآخرين ، وقائد الغرّ المحجلين ، وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه من العلماء العاملين ، والوارثين الربانيين ، إلىٰ يوم الدين .

وبعد : فقد أكرمني الله تعالىٰ في أوائل شهر رجب من عام ١٤٢٩ بزيارة عَلَم من أعلام العلم والفكر في عصرنا : سماحة الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القَرَضاوي في منزله بالدوحة في قطر ، حفظه الله تعالىٰ بخير وعافية ونعمة سابغة ، وأمتع المسلمين بحياته مع وافر الصحة والنشاط والعطاء ، وشرَّفني جزاه الله خيراً بالإجازة العامة .

وأبىٰ عليه خُلُقه الإسلامي ، ونُبله العلمي إلا أن يُشرِّفني بالتدبج معي ، ففعلت ، وإشارته أمر ، وطاعته غُنْم ، وإذا كان بعض العلماء يقول : كبَّرني موت الأكابر ، فأنا أقول : والله كبَّرني حسن ظنّ الأكابر ، ولا عَدِم المسلمون هٰؤلاء الأكابر .

ويعلم القاصي والداني ما يتحلَّىٰ به شيخنا حفظه الله من

اجتماع التواضع الخُلُقي والتواضع العلمي في شخصه الكريم ، وأقصد بالتواضع العلمي : رحابة صدره في مسائل العلم والفقه ، واحترامه رأي الآخرين ، مما يجعل هـٰذا الخُلق العلمي ضِيقاً في صدور الآخرين ، وحائلاً بينهم وبينه ! وقديماً قال العقلاء والحكماء : حسن النية شفيع ، ومواقف شيخنا في وجه الباطل لا تخفىٰ ولا تُنكر ، أيّده الله ووفقه .

وألجأُ في هـٰذا المقام إلىٰ ركن شديد : إلىٰ قول جمهرة كبيرة من علماء الأمة : إن امتثال الأمر خير من الأدب ، فأقول : لقد منَّ الله الكريم المتفضِّل عليَّ ـ وأنا العبد الضعيف ـ بالإجازة من عدد من أكابر أهل العلم ، وتشرَّفت بالاتصال بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق أسانيدهم ، جزاهم الله خيراً عن الإسلام والعلم والدين .

فمنهم :

من مدينة حلب ـ مع غاية الإجلال والاحترام لمقاماتهم ـ العلماء المشايخ : عبد الله سراج الدين ، وعبد الفتاح أبو غدة ـ وهما وليّا نعمتي في هـٰذا العلم ـ ، ومحمد أسعد عِبَه جي ، وعبد الله حماد ، ومصطفى الزرقا ، ومحمد زين العابدين جذبة .

ومن مدينة حماة : محمد علي المراد .

ومن مدينة حمص : عبد العزيز عيون السود ، ووصفي المسَدِّي .

ومن مدينة دمشق : محمد أبو اليسر عابدين ، وأديب كلاس ، وعبد الرزاق الحلبي ، وأحمد نصيب المحاميد ، ومحيي الدين الكردي ، ووهبي سليمان الغاوجي .

ومن المدينة المنورة : محمد حيدر الأيوبي ، ومحمد عبد الله ولد آد .

ومن مكة المكرمة : حسن المشاط ، ومحمد ياسين الفاداني ، وإبراهيم فَطاني ، وعبد الفتاح راوة ، ومحمد علوي المالكي .

ومن الطائف : محمد أمين الساعاتي .

ومن جدة : عبد الله الناخبي .

ومن رابغ : عبد القادر كرامة الله البخاري .

ومن الأحساء : أحمد الدوغان .

ومن فلسطين : محمد نمر الخطيب .

ومن لبنان : حسين عسيران .

ومن العراق : عبد الكريم المدرس ، وساطع الجُمَيلي .

ومن اليمن : إسماعيل الأكوع .

ومن حضرموت : عبد القادر السقاف ، ومحمد أحمد الشاطري .

ومن مصر : حسام الدين القدسي .

ومن السودان : محمد المجذوب المدثِّر الحَجّاز .

ومن المغرب : أحمد الصديق الغماري ، وأخوه عبد الله الصديق ،وإدريس بن محمد بن جعفر الكتاني ،وعبد الرحمٰن بن محمد عبد الحي الكتاني ، وعبد الله التليدي ، ومحمد البقالي .

ومن ليبيا : الشريفة فاطمة السنوسية زوج الملك محمد إدريس السنوسي .

ومن تونس : محمد الشاذلي النيفر .

ومن تركيا : محمد أمين سِراج ، ومحمد أمين أر .

ومن الهند : محمد زكريا الكاندهلوي ، وحبيب الرحمٰن الأعظمي ، وأبو الحسن النَّدْوي ، ومجاهد الإسلام القاسمي ، وأحمد السَّوْرَتي ، وأحمد رضا البِجْنَوَري ، ومحمد حياة السَّنْبهلي ، ومحمد عاقل السَّهارَنْفوري ، وحبيب الله قربان المَظاهري .

ومن باكستان : محمد عبد الرشيد النعماني ، ومحمد عاشق إلٰهي البرني .

فهٰؤلاء سبعة وخمسون عالماً ، رحم الله من انتقل منهم إلىٰ دار كرامته ، وحفظ من بقي منهم بخير وعافية .

والذي ينبغي أن يقال في هٰذا المقام : إن مدار الإجازات في هٰذه الأيام المتأخرة علىٰ ثلاثة أثبات ، مع كثرة ما طُبع منها : ثَبَت العلامة الأمير الكبير (١١٥٤ ـ ١٢٣٢) ، الذي سماه « سدّ الأرب » ، وعلى « الأوائل السُّنْبلية » للعلامة محمد

سعيد سُنبل المكي (ت ١١٧٥) ، وعلىٰ « فهرس الفهارس » للسيد محمد عبد الحي الكتاني (١٣٠٣ ـ ١٣٨٢) رحمهم الله تعالىٰ ، وهٰذا الأخير يحقّ أن يقال فيه : كلُّ الصيد في جوف الفَرا .

أما « ثبت » الأمير : فأتصل به من طريق عدد من شيوخي ، منهم فضيلة العلامة مفتي السادة الشافعية بحلب محمد أسعد عِبَه جي ، عن خاصة شيوخه أحمد المكتبي الحلبي الأزهري ، عن الشمس الأنبابي ، عن مصطفى الذهبي ، عن الأمير الكبير .

ومنهم : مفتي الجمهورية السورية سابقاً الشيخ محمد أبو اليسر عابدين ، عن أبيه ، عن جده ، عن عمه ابن عابدين وشيخ الإسلام عارف حكمت والأمير الصغير ، عن الأمير الكبير .

ومنهم : سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين ، عن أبيه محمد نجيب سراج الدين ، عن بكري الزُّبَري ، عن الباجوري ، عن الأمير .

ومنهم : السيد عبد الرحمٰن الكتاني ، عن أبيه محمد عبد الحي الكتاني ، عن حسين منقارة الطرابلسي ، عن أحمد المرصفي الكبير ، عن الأمير .

وغيرهم ، ويروي شيخنا محمد ياسين فاداني ـ مسند عصره ـ « ثَبت » الأمير عن ستة وأربعين شيخاً ، بأسانيدهم إلى الأمير .

وأما « الأوائل السنبلية » : فأرويها من طرق أيضاً ، منها : عن السيد عبد الرحمٰن الكتاني ، عن أبيه السيد عبد الحي الكتاني ، عن محمد طاهر بن عمر بن عبد المحسن بن محمد طاهر بن محمد سعيد سنبل ، عن أبيه عمر ، عن جده عبد المحسن ، عن والده محمد طاهر ، عن مؤلفها محمد سعيد سنبل . فهٰذا طريق مسلسل بالآباء .

ومنها : عن سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، عن محمد زاهد الكوثري ، عن حسن القَسْطَموني ، عن أحمد الأَرْوادي ، عن عبد الرحمٰن الكُزْبري ، عن محمد طاهر سنبل ، عن أبيه محمد سعيد سنبل .

ومنها : عن حبيب الرحمٰن الأعظمي ، عن أنور الكشميري ، عن محمود الحسن ، عن محمد قاسم النانوتوي ، عن عبد الغني الدهلوي ، عن محمد إسحاق الدهلوي ، عن عمر العطار ، عن محمد طاهر سنبل ، عن أبيه .

ومنها : عن محمد ياسين الفاداني ، عن عبد الستار الدهلوي المكي ، عن حسين الحبشي المكي ، عن محمد بن حسن الحبشي المكي ، عن عمر بن عبد الكريم العطار المكي ، عن محمد طاهر سنبل المكي ، عن أبيه محمد سعيد سنبل . وهٰذا مسلسل بالمكيين ، وقد سمعت هٰذه « الأوائل » بمكة المكرمة علىٰ سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

وأما « فهرس الفهارس » : للسيد محمد عبد الحي الكتاني ،

وتمام اسمه : « فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات » ، وهو اسم يطابق مسمّاه ، فأرويه عن عدد من مشايخي ، منهم :

ولده الشيخ عبد الرحمٰن الكتاني ، وسيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، والشيخ حسن المشاط ، والشيخ محمد ياسين فاداني ، وغيرهم ، عن مؤلفه .

وثمة ثَبَتان آخران يصل أحدُهما العلماء بأسانيد علماء الدولة العثمانية ، وآخر يصلهم بأسانيد علماء الهند .

فالأول : هو « التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز » للإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالىٰ .

ثانيهما : « العناقيد الغالية في الأسانيد العالية » للعلامة المفتي محمد عاشق إلٰهي البِرْني من علماء باكستان ، رحمه الله تعالىٰ .

و« التحرير الوجيز » : أرويه عن مؤلفه من طريق شيخنا وارث علومه سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وعن أسبق تلامذته الأستاذ حسام الدين القدسي ، وعن محمد أمين سِراج ، وعبد العزيز عيون السود ، ومحمد أمين الساعاتي شيخ الطائفة البخارية بمدينة الطائف ، وعن الغُمَاريَّيْن : أحمد الصديق ، وأخيه عبد الله ، ومحمد ياسين الفاداني ، وغيرهم .

وأما « العناقيد الغالية » : فأرويه عن مؤلفه مباشرة ، رحمه الله تعالىٰ .

هٰذا ، وإني أجيز سماحة شيخنا العلامة الفقيه الداعية المفكر الصادع بالحقّ أحد أعلام العصر أبي المحاسن الشيخ يوسف القرضاوي ـ استجابة لأمره ـ إجازة عامة بكل ما يصح عنده أن لي به إجازة أو رواية ، راجياً من فضيلته المسامحة عما تجرأت به علىٰ مقامه الرفيع ، وأن يدعو لي ولوالدي ولمشايخي بظهر الغيب .

كما أنَّ لي وصية أحبّ أن أُوصلها إلىٰ إخواني طلاب العلم الشريف ، فأنا أنتهز هٰذه الفرصة لأوصلها إليهم عن طريق هٰذا (المنبر) العلمي الكريم الشريف : سماحة شيخنا حفظه الله تعالىٰ ، ليسمعوها من صوته مباشرة .

إن وصيتي لإخوتي طلبة العلم الشريف :

١ ـ أن ينظروا إلىٰ هٰذا العلم أنه وسيلة لا غاية ، إنما الغاية منه العمل به ، فعلينا بالمبادرة إلى العمل به .

٢ ـ وأن يُكرموا أنفسهم بإكرامهم له عن أن يتخذوه مطية للدنيا ! .

٣ ـ وأن يديموا الاشتغال به دون فتور ولا انقطاع ، فالأمة تتطلّع إلىٰ علماء متخصصين حتىٰ في دقائق العلم .

٤ ـ وإن هٰذا العلم دِين ، فعليهم بالتثبُّت في كل ما يكتبون ويقولون .

وأوصيهم أيضاً : بهٰذه الدعوات الثلاث : دعاء النبي

صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الفجر : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً طيباً ، وعملاً متقبَّلاً » . ودعاء سيدنا الصديق الأكبر بعد قراءة الفاتحة في الركعة الثالثة من صلاة المغرب وقبل الركوع : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » ، ودعاء سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في سجوده : « اللهم لك سجد سوادي ، وبك آمن فؤادي ، اللهم ارزقني علماً ينفعني ، وعملاً يرفعني » .

وصلى الله علىٰ سيد الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين » .

وكتبه

خادم العلم وأهله

المدينة المنورة ٢٤/ ٣/ ١٤٣١هـ **محمد محمد عوامة**

❁ ❁ ❁

أما أسماء السادة العلماء الذين حصلت الإجازة منهم لسيدي الوالد بعد هٰذا التاريخ ، فهم أصحاب الفضيلة :

١ ـ فضيلة الشيخ محمد بن سالم القاسمي ـ حفظه الله تعالىٰ ـ ، عن عدد من المشايخ ، أبرزهم والده حكيم الإسلام القارئ محمد الطيب ، عن والده أحمد ، عن والده الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالىٰ .

٢ ـ فضيلة الشيخ المعمَّر محمد معوض إبراهيم المصري ـ حفظه الله تعالىٰ ـ .

٣ ـ فضيلة الشيخ قاري أمير الحسن ـ رحمه الله تعالىٰ ـ .

وبناء علىٰ ما تربىٰ عليه الوالد من عدم الاهتمام بهٰذا الأمر ، وقلة الالتفات إليه ، فإنه صعبٌ في إجازاته ، لا يجيز إلا من يقرأ عليه ، ويعرفه عن قرب ، أو يسمع عنه السمعة الحسنة عن بعد ، إلىٰ قبيل زيارته للهند في أول ربيع الأنور من عام ١٤٣٢هـ ، فإن أحد الإخوة الأحباب رأىٰ فيما يراه النائم العلامة الكبير والمحدث الشهير الشيخ محمد بدر الدين الحسني رحمه الله تعالىٰ في صدر مجلس علمي كبير ، وبجانبه حضرة الوالد الكريم ، فقال فضيلة الشيخ بدر الدين الحسني للوالد : **أعطيناك لقب مسند العصر** ، ففهم الوالد من هٰذا المنام : الإذن أو الأمر بالتوسع بإعطاء الإجازات لطلبة العلم ، فتوسع الوالد في هٰذا المجال مع طلبة العلم فقط ، وعقدت له مجالس التحديث والإجازة في (حيدر آباد) ، و(لكنو) ، و(ديونبد) ، و(سهارنفور) ، ثم في (جوهانسبرغ) ، و(دربن) ، و(كيب تون) ، فأجاز ما لا يحصىٰ عددهم ، ولا يعرف حدهم .

ومن أجمل هٰذه المجالس كلها ، وأعلاها مقاماً ، وأرفعها مكانة : عندما فُتح له بيت الإمام اللكنوي رحمه الله تعالىٰ ، وعقد به مجلس تحديث خاص ، حضره بعض وجهاء العلم في مدينة لكنو ، وأكابر القوم فيها ، عدا عن أقارب الإمام اللكنوي ،

فكان مجلس يغمره الروح ، ويتجلىٰ فيه الصفاء ، ويعلوه الهيبة ، ويسوده الوقار ، تذكّرنا سكانه ، وترنمنا بهم ، فعشنا معهم بأجسادنا ، وعاشوا معنا بأرواحهم ، البيت كما هو من أيامهم ، بأبوابه وحيطانه ، وسككه وجدرانه ، عدا عن أماكن قليلة هدَّمتها الأيام ، وغيَّرتها السنون والأعوام ، رحمهم الله رحمة واسعة ، وأجزل لهم المثوبة في الدنيا والآخرة .

شهادة علماء عصره فيه

هٰذه مقتطفات شهادات من أعلام العصر ، وبعض كلمات من أكابر ربان العلم ، قيلت في حق حضرة سيدي الوالد ، أو سمعت عنه في غيابه ، حفظه الله تعالىٰ بخير وعافية ، من طبقة شيوخه أو شيوخ شيوخه ، ومن معاصريه وكبار تلامذته ، على اختلاف التخصصات والاتجاهات ، وتفاوت العصور والأزمنة والطبقات ، وبُعد الأماكن والوجهات ، تبين مكانته ، وتوضح قدره ، وتبرز مقداره ، بأمانة من قائليها ، وصدق من ناقليها ، أقربها وقتاً ما قيل عنه قبل بلوغه السبعين ، والعالم دائماً في علو وترقٍّ ، ومعارف وتجلٍّ ، مستمرين معه ، قائمين بقيامه ، جالسين بجلوسه ، متزودين بأنفاسه ، فناهيك به الآن ، وحسبك به غداً .

وما هٰذا وأكثر منه إلا لسلامة منهجه ، وصحة معتقده ، وقوة علمه ، ودقة فهمه ، وعلو سيرته ، وصدق سريرته ، ومهما حاول الجاهل أن يشوِّش ، والمتعامي أن ينقِّص ، والحاقد أن ينغِّص ، « **فإن عرف العتر يضوع ولا يضيع** ، **وأريج الرند مهما حصرته فإنه ينتشر ويشيع** ، وشذا الورد لم يخلق ليحبس ، وإنما لينم ويذيع ، وإذا أنكر مزكوم نفح العطور ، وطيب المسك والعبير ، وحاول تجاهل ذٰلك ، فإن الزكام سيزول يوماً ما ، ويبقىٰ للطيب أثره الخالد ، وعبقه التالد » .

ما ضرَّ عين الشمس وهي مضيئة إن أنكرت أنوارها العمياء

ووالله لو أردت استقصاء ـ ما عندي فقط ـ مما كتب عنه أو قيل : مدحاً وثناءً ، نظماً أو نثراً ، لضاقت الأسطر ، وتوسعت الصفحات ، ولٰكن أنقل بعضاً مما كُتب وقيل ، مختصراً غير مخل ، ومطولاً أحياناً غير ممل ، تتميماً للفائدة ، وإبرازاً للمكانة :

١ ـ شيخ الحديث والمشايخ ، فضيلة العلامة المحدث ، مولانا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، رحمه الله تعالىٰ ـ الهند ـ :

قال في معرض موضوع « اختلاف الأئمة » : « يرجع الفضل في هٰذا العصر إلىٰ أخينا الفاضل العلامة الشيخ محمد عوامة » .

٢ ـ فضيلة محدث العصر ، الناقد الخبير ، والمحقق الشهير ، الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي ، رحمه الله تعالىٰ ، ـ الهند ـ :

أنقل هنا بعضاً من الألقاب التي كان فضيلة الشيخ يوشح بها رسائله إلىٰ حضرة سيدي الوالد ، وهو من طبقة شيوخ شيوخه ، أذكرها هنا مجموعة من عدد من الرسائل متضافرة ، محفوظة جميعها عندي .

قال رحمه الله تعالىٰ في حق سيدي الوالد : « الأخ العزيز ، الفاضل الذكي ، العالم المحقق اليلمعي ، المحب الحبيب ،

المتقن ، الفطن ، خيرة الأحباب ، صاحب الفضل الجسيم ، والمحب الصميم . . . » .

٣ ـ فضيلة العلامة الفقيه ، المحدث الأصولي الكبير ، السيد عبد الله الصديق الغماري رحمه الله تعالىٰ ـ المغرب ـ :

أنقل هنا أيضاً بعض الألقاب والعبارات التي كتبها مولانا الشيخ لسيدي الوالد ، وينمُّ بها عن محبته وثقته ، وهي محفوظة عندي بخطه ، مع فقدان الكثير والكثير منها ، يقول رحمه الله تعالىٰ :

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد عوامة ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . ، كان من المؤسف حقاً أن لم يتيسر لي طول مجالستكم ، والتحدث إليكم لطول العهد بيننا وبينكم » .

ويقول في أخرىٰ بنفس المعنى المتقدم : « لقد كان اجتماعنا بكم قصيراً جداً ، لم نتمكن فيه من التمتع بحديثكم رغم طول افتراقنا ، ونرجو أن نجتمع بكم قريباً » .

٤ ـ فضيلة العلامة الكبير ، والمحدث الشهير ، الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني ، رحمه الله تعالىٰ ـ باكستان ـ :

وكذا أنقل هنا بعضاً من الألقاب التي كان فضيلته يوشح

بها رسائله إلىٰ حضرة سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ ، وهو من شيوخه ، أذكرها هنا كسابقتها ، مجموعة من عدد من الرسائل ، وهي محفوظة بمجموعها عندي .

وصفه رحمه الله تعالىٰ بـ : « فضيلة الأستاذ البحاثة ، العالم الكبير ، العلامة المحقق ، البارع المحدث ، الناقد . . . » .

❁ ❁ ❁

٥ ـ فقيه العصر ، العلامة الكبير ، الشيخ مصطفىٰ أحمد الزرقا ، رحمه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال في معرض ذكر كتاب « أثر الحديث الشريف » : « وجدته كتاباً جليل القدر ، كمؤلفه حفظه الله . . . ، وهو يبني بكتابه هـٰذا جسراً بين علمي الرواية والدراية : رواية الحديث وفقهه » .

❁ ❁ ❁

٦ ـ فقيه الأدباء ، وأديب الفقهاء ، الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالىٰ ـ السعودية ـ :

قال : « كم رأت عيني من العلماء ، وكم قرأت من الكتب ، لم تر عيني مثل الشيخ محمد عوامة ، ولم أقرأ مثل كتابه « أثر الحديث الشريف » .

❁ ❁ ❁

٧ ـ فضيلة العلامة الحجة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، رحمه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

وصفه بـ : « الجهبذ المحقق » ، وقال أيضاً : « تلميذ الأمس وزميل اليوم » .

٨ ـ فضيلة العلامة الحافظ ، الشيخ عبد الله سراج الدين ، رحمه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال : « يا ليت لي عشرة مثل الشيخ محمد عوامة » .

وقال أيضاً : « لو كان عندي شخص آخر مثل الشيخ محمد لكُفيت جميع الأساتذة » .

٩ ـ فضيلة العلامة سيبويه العصر النحوي المعمر ، الشيخ أحمد القلاش ، رحمه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال : « أنا لا أخاف من أي شيخ من النحو ، ولا أحسب له حساباً ، إلا إذا جلست أمام الشيخ محمد عوامة ، فإني أحسب له حساباً ، وأدقق في كلامي » .

وفضيلة الشيخ رحمه الله هو من شيوخ الوالد ، ومن طبقة شيوخ شيوخه .

١٠ ـ فضيلة العلامة المتكلم النظار المعمر محمد أمين أر ، رحمه الله تعالىٰ ـ تركيا ـ :

قال : « عالم فاضل ، وقور متواضع ، أهل لكل المناقب ، يستحق كل الثناء والتقدير » .

١١ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ وهبي سليمان غاوجي ، رحمه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال : « زرتك أول مرّة في بيتك بحلب ١٩٧٢ ، فرأيتك علىٰ شبابك في أدب جم ، وسمت حسن ، مع حلاوة الحديث ، وتذاكرنا بعض المسائل العلمية ، فرأيت فضلاً وعلماً . . .

ورأيتك عالماً محققاً حين حققت أول من قال بالحديث الحسن ، حين ذكرك شيخنا عبد الفتاح أبو غدة . . .

واستفدت منك كثيراً في قراءة المخطوط ، وفي معرفة المخطوطات ، وعلىٰ أثر ذٰلك أخرجتُ « فضائل القرآن » لأبي عبيد ، مستفيداً منك في تحقيق بعض العبارات . . .

أسعىٰ إلىٰ زيارتك تجديداً لهٰذا الودّ ، وأستفيد من غرر العلم ومسائله » .

١٢ ـ العلامة الندرة الموسوعي ، الشيخ محمد سعيد الطنطاوي حفظه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال : « لا أعلم علىٰ وجه الأرض أعلم منه في علم التحقيق » ، وقال مرة أخرىٰ : « أَعلمُ من أَعرِف علىٰ وجه الأرض » .

١٣ ـ فضيلة العلامة الفقيه ، المعمر الشيخ أحمد الدوغان الأحسائي ، رحمه الله تعالىٰ ـ السعودية ـ :

قال : « الشيخ محمد عوامة ، من علمائنا المحققين ، وفقهاء المحدثين ، كتبه جليلة الفائدة ، أقرأناها في دروسنا ، واستفاد منها طلابنا ، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء » .

١٤ ـ معالي الدكتور محمد عبده يماني ، رحمه الله تعالىٰ ، وزير الإعلام السعودي السابق ـ السعودية ـ :

قال : « لقد أكرمني الله عز وجل أن أجتمع برجل عملت معه فترة من الزمن ، وهو أستاذنا الشيخ محمد عوامة ، هـٰذا الرجل نضر الله وجهه تحقيقاً لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وأنا أشهد أن هـٰذا الرجل طوال الفترة التي عملت فيها معه ، أو قرأت فيها عليه ، أو تتلمذت علىٰ يديه ، أو اشتغلنا معاً في بعض الأمور في خدمة الحديث النبوي ، شعرت أنه فعلاً كما يقول أهل مكة : عوامة ، وهم يقولون ذٰلك لمن يحسن العوم ، وهـٰذا العوام في العلم هو : محمد بن محمد عوامة ، محب بن محب . . .

مثل هـٰذا الرجل الفذ جدير أن يقدر وتحترم أعماله ، وإننا نفخر به ونشكر الله علىٰ ما وفقه إليه ، ونسأل الله له مديد العمر والتوفيق والسداد » .

١٥ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ نور الدين عتر ، حفظه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

قال : « اجتمعتُ فيه فضائل العصر » .

١٦ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أمين سراج ، حفظه الله تعالىٰ ، شيخ مسجد السلطان محمد الفاتح ـ تركيا ـ :

قال : « عالم جليل من العلماء الأجلاء ، محقق موفق ، محدث بارع ، فقيه خبير . . .

ليس لأمثالي أن يكرمه حق التكريم ، ويقدره حق التقدير . . . كتب الشيخ حسام الدين القدسي لي كلمات تقدير وثناء على الشيخ محمد عوامة في رسالة له بعث بها إلي . . .

وقد وجدت لديه دقة الفقهاء المحققين ، ورقة المحدثين الحفاظ ، وتقوى الصالحين ، وعنده عناية تامة في أداء الأمانة العلمية ، وله حساسية واضحة ضد من أراد أن ينال من السنة المطهرة ببنت شفة » .

١٧ ـ فضيلة الشيخ العلامة المحدث عبد الله التليدي ، رحمه الله تعالىٰ ـ المغرب ـ :

قال : « وقد اشتهر في عصرنا نبغاء في هٰذا العلم الشريف ، كانوا السبب في النهضة الحديثية المعاصرة . . .

ومِن خَلَف عدوله في هٰذا العصر ، أخونا وصديقنا العلامة المبجل ، الباحث الناقد المحدث ، فضيلة الشيخ محمد عوامة الحلبي ، نزيل المدينة المنورة ، المجاور لخير البرية ، صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم » .

❁ ❁ ❁

١٨ ـ فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور الشيخ الصادق بن عبد الرحمٰن الغرياني ، حفظه الله تعالىٰ ، مفتي الجمهورية الليبية ـ ليبيا ـ :

قال : « . . . وافاني في لطف وتقدير بملاحظات حديثية قيمة ، لا تصدر إلا عن عالم محقق مدقق ، علمت منها فضل الشيخ ومنزلته في العلم ، ورسوخ قدمه في السنة وعلومها ، ومنذ ذٰلك الوقت توطدت صلتي بالشيخ وبأسرته الكريمة . . .

وتغمرني كلما لقيته ورفاقي في زيارته مودة منه صادقة ، ومحبة صافية ، في دماثه خلق ، وأنس مجلس ، وانشراح نفس . . .

كل ذٰلك يجده زائر الشيخ حفظه الله تعالىٰ في أدب جم ، وخلق كريم ، يرىٰ فيه الجليس سمت العلماء ، وأهل الفضل والدين ، ولا يفارق مجلسه إلا بفوائد من العلم نافعة » .

❁ ❁ ❁

١٩ ـ العلامة الرباني المتفنن فضيلة الأستاذ الدكتور عمر

مسعود التيجاني ، حفظه الله تعالى ، المستشار في جامعة إفريقيا العالمية ـ السودان ـ :

« مولانا الشيخ محمد عوامة عصمة هٰذا الدين في هٰذا العصر » .

❁ ❁ ❁

٢٠ ـ سماحة الشيخ العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة ، حفظه الله تعالىٰ ، مفتي الديار المصرية سابقاً ـ مصر ـ :

قال : « وكان من أعيان هٰذا الشأن ، أخونا الكريم ، فضيلة العلامة المتقن المحدث ، الشيخ محمد عوامة ، الذي أتحف أهل العلم بمؤلفات وتحقيقات في غاية الجودة والدقة ، تنم عن علم واسع ، وعن بصر وإتقان ، وكل كتبه كذٰلك » .

❁ ❁ ❁

٢١ ـ فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور الشيخ فاروق حمادة حفظه الله تعالىٰ ، أستاذ السنة وعلومها بجامعة محمد الخامس بالرباط ، المستشار بديوان ولي العهد في أبو ظبي ـ المغرب ـ :

قال : « العلامة الكبير المحقق الأستاذ الشيخ محمد عوامة ، زاد الله في معناه : عنوانٌ لجيل أغرٍّ أبرٍّ ، خدم السنة النبوية ، وجَهِد في التعريف بها خلال فترة مضطربة . . .

ورائد مدرسة جليلة في الحديث الشريف ، وقد كنت أرىٰ سيدي وشيخي الحافظ العلامة السيد عبد الله بن الصديق

الغماري ـ أعلى الله مقامه ـ يقدر الشيخ محمد عوامة ، ويعتدُّ بعلمه وفهمه للسنة النبوية الشريفة ، ويفرح ويُسرُّ عندما ترده رسالة أو خبر من الشيخ . . .

هٰذا التنقيب والتدقيق في المعرفة الإسلامية ، جعلت من الشيخ محمد عوامة باحثاً راسخاً ، وعالماً أصيلاً لا تفوته مسائل العقائد وأصول الدين ، ولا دقائق علوم القرآن والتفسير ، ولا فروع الفقه أو كليات الأصول ، ولا تغيب عنه دلالات الألفاظ اللغوية وفقه اللغة . . .

إنه علىٰ طريقة العلماء الكبار الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في عصورها الزاهرة ، وكانوا فيها مرجعية باستحقاق وجدارة . . .

كل ما خطته أنامل الشيخ حفظه الله يدلك علىٰ حسن انتقائه ، وبعد نظره ، ورفعة قصده ، وكذٰلك تدلك أبحاثه وتحقيقاته علىٰ كثرة اطلاعه وسعة معارفه ، وتنبيك عن رؤية حكيمة وراءها عقل راجح ، ورأي ناصح . . .

إنني أؤكد أن الأستاذ الشيخ محمد عوامة مدرسة متميزة رائدة ، لا يمكن لمنصف أو عاقل إلا أن يعترف بأهميّتها ويقر بريادتها . . .

ومن يدرس كل ما أنتجه الشيخ ، يلمس أنه في كل ما يكتب ويسطر ، ذو خلق كريم ، وأسلوب عفيف ، وعبارة نبيلة ، ونقد بناء ، لا تجد فيه تصيّداً لجرح ، أو حرصاً علىٰ تخطئة لعالم ، أو سقوطاً في مهاترة ، أو تجهيلاً وانتقاصاً لأحد ، إنه

يكتب بأسلوب علمي راقٍ ، عبارة ومضموناً ، وهٰذا يدل علىٰ رسوخه في العلم والخلق . . .

إنه خلاصة مدرسة ضاربة الجذور في تاريخ الإسلام ، وقد غدا اليوم رائد مدرسة متقدمة في خدمة الحديث الشريف والسنة النبوية ، علماً وخلقاً ، . . .

إنه حلقة مضيئة في سلسلة طويلة ممتدة يقوم عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشق طريقها عبر الزمن شاهدة على الأمة وقائمة بحق الدين والسنة النبوية » .

❁ ❁ ❁

٢٢ ـ فضيلة العلامة الفقيه الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان ، حفظه الله تعالىٰ ، أستاذ الدراسات العليا بجامعة أم القرىٰ ، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية ـ السعودية ـ :

قال : « فضيلة العلامة الأديب المحدث المحقق الشيخ محمد عوامة حفظه الله تعالىٰ ، أنموذج رفيع لعلماء المسلمين في وقتنا الحاضر ، الذين يجاهدون في الله حق جهاده ، ينافحون عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وينهجون منهج السلف الصالح . . .

تتلمذت علىٰ مائدته العلمية قبل التشرف بلقائه ، فكان أمنية ، والحديث إليه أملاً . . .

أكرمني المولىٰ جل وعلا بالاجتماع به ، فتضاعف إعجابي

بهٰذا العالم الفذ ، بتواضعه الجم ، وخلقه الرفيع ، إذا تحدثت فأنت أمام عالم من علماء السلف خلقاً فاضلاً ، سكينة وهدوءً ، متزن الحديث ، يشعر جليسه مهما تدنت منزلته أنه الأعلم والأفضل والأجل . . .

فضيلته دوحة علم وفقه وحديث وأدب ، علم من أعلام هٰذا العصر ، قيادة فكرية ، قدوة حسنة ، ومثل رفيع يحتذىٰ في فكره وأسلوبه العلمي الرصين ، إذا جلست إليه أنست منه بحديث هادئ عذب المورد ، وأدب نبوي جم ، ونفس كلها سكينة وطمأنينة ، تتجلىٰ فيه مصداقية العلماء ، ونبرة الصالحين الأتقياء . . .

فضيلته مفخرة من مفاخر هٰذه الأمة في العصر الحاضر » .

❁ ❁ ❁

٢٣ ـ فضيلة العلامة الفقيه الأستاذ الشيخ محمد تقي العثماني ، حفظه الله تعالىٰ ، نائب رئيس جامعة دار العلوم كراتشي ـ باكستان ـ :

قال : « فضيلة الأستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد عوامة ، من الذين زادوا المكتبة الإسلامية ثروة ببحوثهم العلمية ، ومؤلفاتهم القيمة ، وتحقيقاتهم البديعة ، وسهّلوا لطلاب العلم أمثالنا الاستفادة بكثير من تراثنا العلمي الثمين . . .

وأدعو الله سبحانه وتعالىٰ أن يبقي شيخنا العلامة محمد عوامة ذخراً ثميناً للإسلام والمسلمين ، ويمده بالتوفيق ، وينفع به العباد والبلاد . آمين » .

وكتب له مرة بخطه ـ محفوظة عندي ـ : « فضيلة العلامة المحقق الشيخ محمد عوامة حفظه الله تعالىٰ ورعاه . . .

فكم كنت أتمنىٰ أن أكتب إليكم وأداوم المراسلة ، لأنتفع بعلومكم ، وأستفيد من معارفكم ، ولٰكن عاقت دون تحقيق هٰذه الأمنية عوائق ، فالعذر العذر » .

❁ ❁ ❁

٢٤ ـ فضيلة العلامة الفقيه ، مولانا الشيخ خالد سيف الله رحماني حفظه الله تعالى ، الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي في الهند ـ الهند ـ :

قال : « سماحة العالم الرباني الكبير ، والمحدث الجليل المعروف ، الشيخ محمد عوامة حفظه الله ، ومتعنا بطول حياته ، الذي يمتاز بإصابة الرأي في البحث والتحقيق ، واختيار الطريق الوسط والسلوك على النهج الرصين ، العدل بين الإفراط والتفريط ، ولا شك أن تحقيقاته القيمة تنير الطريق السوي لأهل العلم ، وترشدهم نحو المنهج الصحيح في التحقيق » .

وقال أخرى : « الشيخ المحدث الفقيه ، المحقق الضليع ، العلامة محمد بن محمد عوامة ، متعنا الله بطول بقائه ، وأفاض على الأمة من نسيم نفحات تلك الأسرة الفاضلة » .

❁ ❁ ❁

٢٥ ـ سعادة الأديب ، الأستاذ عبد المقصود خوجة ، حفظه الله تعالىٰ ، راعي الاثنينية ـ السعودية ـ :

قال : « عالم جليل ، حمل أمانة الكلمة ، وأدَّىٰ رسالة العلم ، كخير ما يؤديها الرجال . . .

نحتفي ونكرم علماً فذاً ، آثر الصمت وتجويد الأداء ، بعيداً عن دوائر الضوء وضجيج الإعلام ، إذ لو كان في الإسلام رهبانية ، لحسبته راهباً متبتلاً في حضرة الكتب ، ومجالس النور ، ومؤسسات البحث العلمي » .

❁ ❁ ❁

٢٦ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ الدكتور عبد الرزاق إسكندر ، حفظه الله تعالىٰ ، مدير جامعة العلوم الإسلامية كراتشي ، ورئيس وفاق المدارس ـ باكستان ـ :

قال : « وإذا أراد الله بإنسان خيراً وكمالاً ، يسَّر له أسباب الخير والكمال ، ومن هٰذه الشخصيات العلمية في عصرنا الحاضر ، فضيلة العلامة المحقق المحدث الفقيه ، الشيخ محمد عوامة حفظه الله تعالى ، الذي يسر الله تعالىٰ له أسباب النبوغ والكمال . . .

رزق المواهب الفطرية من الذكاء والشوق ، والخلق والأدب » .

❁ ❁ ❁

٢٧ ـ فضيلة العلامة الفقيه ، الدكتور أحمد الحجي الكردي ، حفظه الله ، خبير الموسوعة الفقهية الكويتية ـ سوريا ـ :

قال : « فضيلة العلامة المحقق الشيخ محمد بن محمد عوامة ،

من العلماء الشرعيين المميزين ، الذين أخذوا العلم مشافهة عن أكابر العلماء ، علىٰ طريقة السلف الصالح في التلقي ، ولذٰلك كان مميزاً عن أقرانه ، ومتفوقاً علىٰ كثير من أصحابه وزملائه . . .

وقد رزقه الله صبراً على البحث ، ورغبة في التجويد ، دون كلل أو ملل » .

٢٨ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ أحمد معبد عبد الكريم حفظه الله تعالىٰ ، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر ـ مصر ـ :

قال : « العلامة الشيخ محمد عوامة ، حفظه الله ، معروف بعلمه وفضله لدىٰ جمهرة طلاب الحديث وعلومه ، قاصيهم ودانيهم ، وما أنا إلا واحد منهم » .

٢٩ ـ فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور أحمد الخراط ، حفظه الله تعالى ، المستشار لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، وأستاذ اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود ، الحائز علىٰ جائزة بروناي للدراسات الإسلامية ـ سوريا ـ :

قال : « منذ أربعين عاماً ، كان مجلسه موئل كثير من طلبة العلم الذين يقصدونه سائلين ، أو راغبين في محاضراته ، وكان اسمه يتردد في الأوساط العلمية في مدينة حلب ، مشفوعاً بالقبول

والتقدير ، وتوخي الإفادة ، وسعة الاطلاع ، والتوازن في معالجة الأمور . . .

والشيخ مثل أعلىٰ في الوفاء والأدب الجم مع مشايخه . . .

ويتميز الشيخ بقوة الحافظة ، فهو قادر علىٰ أن يختزن في ذاكرته تواريخ سنة وفاة جمهور المحدثين ، وغيرهم من السلف ، ويستحضرها وقت الطلب . . .

والشيخ على الرغم من تخصصه بعلوم الحديث ، وكونه أحد المحدثين الذين يشار إليهم بالبنان ، وتركه في هٰذه العلوم تراثاً حافلاً جامعاً : صاحب ذوق في اختياراته اللغوية والأدبية ، حتىٰ إنك لتحسبه واحداً من أهل هٰذه الصنعة ، وذٰلك من خلال ما لمسته منه حين كان يبحث معي بين الآونة والأخرىٰ مسائل تتصل بعلوم اللغة أو النحو أو التصريف ، إذ إن مشاركته تشير إلى الإلمام الدقيق بما يشارك فيه ، كما تعني مطالعته لدقائق كتب هٰذه الصناعة » .

❁ ❁ ❁

٣٠ ـ فضيلة العلامة الأصولي الأستاذ الدكتور الشيخ حسن محمد مقبولي الأهدل ، رحمه الله تعالىٰ ، رئيس قسم أصول الفقه والحديث ، جامعة صنعاء ـ اليمن ـ :

قال : « أستاذنا وشيخنا الشيخ العلامة الحجة محمد عوامة حفظه الله تبارك وتعالىٰ في عمره ، ونفع بعلمه الإسلام والمسلمين . . .

استفدت منه بعلمه الجم الثري في مختلف علوم الحديث ، ويشهد بذٰلك جهوده العلمية وتحقيقاته التي أعلم أنه لم يصل إلىٰ مستواها الكثير من المعاصرين اليوم ، والمشتغلين بعلم الحديث ، لما يمتاز به من الاطلاع الواسع ودقة النظر ، والفهم الذي رزقه الله إياه في علوم الحديث » .

٣١ ـ سماحة العلامة الفقيه الدكتور أسامة عبد الرزاق الرفاعي ، حفظه الله تعالىٰ ، مفتي منطقة عكار ـ لبنان ـ :

قال : « عرفت سيدي الشيخ حفظه الله عن قرب ، ورأيت من مكارمه وأخلاقه التي حباه الله إياها وبها ، ما غدت معه وله سجية وطبعاً من غير تكلف ، والحديث عنها حديث يطول ، وفيه فنون وشجون ، ويحتاج إلىٰ غواص ماهر ، يستخرج درره ، ويفتق أكمامه ، . . . .

لقد كان سيدي الشيخ وارثاً نبوياً بقاله وحاله ، فجلُّ عمله وخدمته للعلم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة ملازمته له ، وتدقيقه فيه ، انسكبت معانيه فيه ، وتحلىٰ بحلاه ، وظهرت فيه أحواله وأنواره ، فكانت أحواله نبوية محمديّة ، وكان يربي بحاله قبل قاله ، وبهديه وسمته ، وبألحاظه قبل ألفاظه . . . إنه سبيكة علمية أخلاقية تربوية وفكرية ، يملك عليك قلبك بكلامه ، ويأسر فؤادك بأخلاقه ،

ويربي نفسك بسلوكه ، ويؤدبك بصحبته ، ويثلج صدرك ببيانه » .

❁ ❁ ❁

٣٢ ـ فضيلة العلامة الدكتور الأستاذ الشيخ علي أحمد الندوي ، حفظه الله تعالىٰ ، خبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي ، ورئيس لجنة الضوابط الفقهية في مشروع معلمة القواعد الفقهية ، ورئيس المستشارين بأمانة الهيئة الشرعية لمصرف الراجحي سابقاً ، والحائز علىٰ جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية ـ الهند ـ :

قال : « إذا ألقينا نظرة فاحصة على الأعمال العلمية القيمة الخادمة للسنة النبوية ، ألفينا الكتب المحققة علىٰ يد الأستاذ الجليل العلامة الشيخ محمد عوامة حفظه الله تعالىٰ ، متميزة مجلية في هٰذا الميدان ، فهو فذ فيما ألفه وحققه . . .

وإذا أمعنا النظر في المقدمات الضافية التي حررها فضيلة الشيخ محمد حفظه الله تعالىٰ لهٰذه الكتب ، وجدناها دراسات قيمة نافعة تدل علىٰ رسوخه في هٰذا التخصص مع ألمعية في الفكر ، واعتدال في الرأي ، وأود أن أشير إلىٰ أنني قبل عشرين سنة سمعت العلامة الجليل الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي رحمه الله ـ وهو أبرز شخصية في المعرفة بالحديث ورجاله في عصره ـ كلمة إشادة بفضيلة الشيخ محمد ، يدل فحواها على اعترافه بكفاءة الأستاذ الجليل الشيخ محمد لخدمة السنة

النبوية ، وبجانب ذٰلك كله هو غزير العلم ، ومشارك في كافة العلوم الشرعية مع ما وهبه الله تعالىٰ من سجايا ومزايا وأخلاق كريمة تذكرنا بالسلف الصالح » .

❁ ❁ ❁

٣٣ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ شبير أحمد الصالوجي ، حفظه الله تعالىٰ ، مدير جامعة دار العلوم زكريا ، جوهانسبورغ ـ جنوب إفريقيا ـ :

قال : « آية من آيات الله ، ورائد من رواد المحققين ، وإمام من أئمة علوم الحديث والجرح والتعديل » .

❁ ❁ ❁

٣٤ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور قاسم علي سعد ، حفظه الله تعالىٰ ، رئيس تحرير مجلة الأحمدية سابقاً ، أستاذ الحديث وعلومه في جامعة الشارقة ـ لبنان ـ :

قال : « . . . ومن تلك الفئة الباقية : علم من أعلام العلم والتحقيق ، ووجه من وجوه الإتقان والضبط ، الذي صار يضرب المثل بحسن تحقيقه ، وجودة تأليفه ، إنه محقق « المصنف » لابن أبي شيبة ، وغيره من أمهات الكتب ، العلامة المتقن ، والمحقق الضابط ، والعالم الراسخ ، الشيخ الأجل ، محمد عوامة حفظه الله تعالىٰ ، وأدام عليه توفيقه » .

❁ ❁ ❁

٣٥ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ ناجي بن راشد العربي ، حفظه الله تعالىٰ ، أستاذ الحديث وعلومه جامعة البحرين ـ البحرين ـ :

قال : « حضرة شيخنا وأستاذنا ومربي أرواحنا ، ومغذي عقولنا ، سيدنا ومولانا العلامة الجليل ، الفقيه المحدث المحقق البركة الصالح الورع ، الثبت ، فضيلة العالم العامل ، سماحة الشيخ محمد عوامة الحلبي ، ثم المدني . . .

بحر لا تكدره الدلاء ، وكنز لم يعرف قدره كثير من الفضلاء ، وتجاهل فضله كثير من الدخلاء ، له همة تناطح السماء ، وعزيمة تلين تحت مطرقتها عويصات المسائل ، متعته العلم ، ولذته بطون الكتب والدفاتر ، له اللسان الذاكر الرطب من ذكر الله تعالىٰ ، والقلب الشاكر الذي يراقب مولاه ، عالم يذكرك بالله تبارك وتعالىٰ ، ويدلك عليه سبحانه بحاله ومقاله » .

❁ ❁ ❁

٣٦ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد عبد الشهيد النعماني ، حفظه الله تعالىٰ ـ باكستان ـ :

قال : « إن فضيلة الشيخ معروف بزهده وورعه ، وديانته المتينة ، وخصاله الحميدة ، ومساعيه الجليلة ، وتحقيقاته البارزة ، والمقدمات النفيسة ، والتعليقات النادرة علىٰ كتب رجال الحديث . . .

واسع العلم والمعرفة ، نذر نفسه للعلم . . .

وللشيخ حفظه الله مكانة مرموقة في تحقيق المخطوطات ، وله منهج مميز في تحقيق التراث النبوي ، تظهر براعته في علم الجرح والتعديل ، ونقد الرجال وأصول الحديث ، وتدل علىٰ خبرته الواسعة في علم الحديث النبوي الشريف » .

٣٧ ـ سعادة الأستاذ الدكتور رضوان فضل الرحمٰن الشيخ ، حفظه الله تعالىٰ ، أستاذ علم التربية بجامعة طيبة ـ السعودية ـ :

قال : « وجل القلم عن الحديث عن علم من أعلام علماء الدين ، الحاملين ميراث سيد الأنبياء والمرسلين ؛ لأن الحديث من الصغير عن الكبير هو حديث قاصر ، ومهما يتحدث فهو يتحدث بقدر معرفته الضئيلة ، وخبرته القليلة ، فأنىٰ له أن يستوعب بحراً من العلوم ، وكنزاً من الدر المنظوم ، وعَلَم قلَّ نظيره في هٰذا الزمان المأفون . . .

يجد القارئ المنصف في كل ما خطه يراع هٰذا العَلَم علماً عظيماً ، واستخراجاً لكنز من كنوز هٰذا الدين دفين ، وصورة مشرقة عن اتجاه مُصلِح يريد التقريب بين مشارب أبناء هٰذه الأمة كي تبقىٰ في حصن حصين . . .

هٰذا السلوك يتضح في كل ما كتبه شيخنا حفظه الله ، بحيث يجد القارئ الكريم التأصيل الشرعي المبني على الدليل بصحة

النقل ، والتعليل المنطقي المبني علىٰ كمال العقل ، والاتجاه النفسي المبني علىٰ معرفة وإدراك لكل حقل » .

❁ ❁ ❁

٣٨ ـ مختارات من قصيدة فضيلة الأستاذ الأديب الشاعر ضياء الدين الصابوني رحمه الله تعالىٰ ، شاعر طيبة عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، وهو من أساتذة سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ ـ سوريا ـ :

أمحمد أصبحتَ أعظمَ موئل ... فأروِ الحديث عن النبي المرسلِ
ولقد عرفتُك عالماً متبحِّراً ... بحديثه مثل الرعيل الأولِ
مثل البخاري في صحيح حديثه ... ومسلم ومالك وحنبلِ
شيخ الحديث بعصرنا نلتَ المنىٰ ... وبلغتَ في العلياء أرفع منزلِ
والله يحفظكم مناراً يُحتذىٰ ... ولتبق في علم الحديث كمشعلِ

❁ ❁ ❁

٣٩ ـ مختارات من قصيدة فضيلة الأستاذ الأديب الشاعر المعمر جعفر محمد السقاف ، مكتب توثيق الثقافة والتراث ، حضرموت ـ اليمن ـ :

الثغر أشرق معلناً إنعامَهْ ... لمحمد بن محمد عوامةْ
اَلعالم الغطريف اَلحلبي المحد ... ث شيخنا أستاذنا العلامةْ
عَلَمٌ من الشهباء كابن مقلِّدٍ ... وأسامة بن المنقذ الضرغامةْ
شيخٌ حوىٰ دُرر المكارم واجتبىٰ ... زهر الفضائل فاستقرَّ مقامهْ

فبقيتَ عالمنا المبجَّل حاملاً علم الحديث وموضحاً أحكامهْ

٤٠ ـ مختارات من قصيدة العلامة الفقيه الأستاذ الشيخ مفتي رضاء الحق ، مفتي جمهورية جنوب إفريقيا الأكبر ـ جنوب إفريقيا ـ :

أتانا الشيخ عوّام البحور يضيء قلوبنا دوماً بنورِ
هو العوام في بحر اللآلي يَبُثُّ الدرَّ في نحر الصدورِ
له الكلمات كالدر المُصفَّىٰ يحقِّق في المساء وفي البكورِ
غزير العلم ، في التحقيق فردٌ نظيف الخلق كالماء الطهورِ
هو الشيخُ المحدِّث في نبوغٍ هو المشغول في وزع العطورِ
جوادٌ جاء من بلدٍ بعيدٍ بغيث العلم من غيمٍ مطيرِ
قدوم الشيخ مثل العيد فرحٌ جزاه الله نعمات القصورِ
فتحقيقاته دَرٌّ ودُرٌّ وكحلٌ للبصائر في العصورِ
وأشرق علمه شرقاً وغرباً أنار الليل كالبدر الشهيرِ
وتصنيفاته ذهبٌ وطيبٌ تفوحُ ريالُ طيبٍ من عبيرِ
أدام الله ظلَّ الشيخ فينا بصحة جسمه دهر الدهورِ

كتب فضيلة سيّدي الوالد

إن التعريف بمؤلفات سيدي الوالد وتحقيقاته : يحتاج إلىٰ منقِّب بارع ، وغوَّاص ماهر ، يستطيع استخلاص التبر ، واستخراج الدُّر ، مع فهم المرمىٰ ، وإدراك المغزىٰ ، واستيعاب المعنىٰ ، فتُعرف بهـٰذا اجتهاداته ، وتبرز أفكاره ، وتكشف آراؤه .

وأرىٰ أن « **الكاشف** » لها يحتاج إلىٰ « **دراسة حديثية** » متمكنة به ومتمكن بها ، و« قول بديع » بليغ يعبِّر عنها ، و« **معالم إرشادية** » راسخة يسير عليها ، و« **شمائل** » واضحة يتحلىٰ بها ، و« **مجالس** » متعددة ينكت بها « **فرائد النقول والأخبار** » من أعالي أقواله ، و« **حجية أفعاله** » ، و« **مدخل إلىٰ علم السنن** » يفهم به مراده ، فإنه يحاكي الكبار ، ويشامّ معالي الرجال .

فـ : « **أدب الاختلاف** » في أخلاق سيدي الوالد ظاهر ، و« **تصحيح المسار العلمي** » في ذهنه حاضر ، و« **أثر الحديث** » علىٰ وجهه باهر .

وما هـٰذا إلا بدعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، حينما دعا وشجع ، لمن وهب نفسه و« **نصب الراية** » لنقل « **صحاح الأحاديث** » و« **السنن** » .

وساعد في « **تدريب الراوي** » وتنقية المروي للأمم ، سواء حفظاً وتوريثاً ، أم تدويناً في « **مصنف** » أو « **مسند** » و« **تقريباً** » ، فينضُرُ

الوجه ، ويُنال الأجر ، ويُرى النفع ، يوم لا تغني « **الأنساب** » ، ولا تنفع الأحساب .

❁ ❁ ❁

ثم إن منهج سيدي الوالد في كل ما كتب : أنه دائم الزيادة والتصحيح ، والتعديل والتنقيح ، فترىٰ يده في كتبه ظاهرة ، وما هـٰذا إلا لأنها أولاده وديدنه وأفكاره ، فبها سيلقى الله ، وبأثرها سيحاسب أمام الله ، يردد علينا دائماً قول الله تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ .

ولـهـٰذا تجدها دوماً أمامه ، يراعيها ويلاحظها ، يراعيها بالتعديل فيُتقِن عمله ، ويلاحظها بالإضافة فيُكمِل كتبه ، مستشعراً عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

❁ ❁ ❁

وكنت نويت أن أعرض كافة مؤلفاته وتحقيقاته مستعرضاً لها ، مظهراً نكاتها ، ناشراً عبيرها ، مفوِّحاً أريجها ، حسب استطاعتي وقدرتي ، لـكن شاء الله تعالىٰ ـ وله الفضل ـ أن يظهر هـٰذا العبق ، وينشر هـٰذا الفضل ، علىٰ يد جامعتين كبيرتين ، من جامعات تركيا ـ حماها الله ـ فقامتا بمؤتمر علمي دولي حول فضيلة سيدي الوالد حفظه الله تعالىٰ أسموه :

« **مؤتمر العلامة المحدث محمد عوامة وجهوده الحديثية** »

فكتب أهل الفضل فيه حول كتبه ، وبحثوا حول أبحاثه ، فجزاهم الله خيراً ، وأكرمهم بالبر والتقوىٰ .

أطال الله عمر سيدي الوالد وبقاءه ، وآتاه مناه وسؤله ، في دنياه وآخرته ، وهو بأتم صحة وعافية ، وقوة وعطاء ، واستمرار وازدياد ، مع منح تتوالىٰ ، وإكرامات تتعاقب ، ذخراً للإسلام وأهله ، والعلم وطلابه ، والتحقيق ورواده ، بمنه وكرمه .

وصلى الله علىٰ سيدنا وحبيبنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً كثيراً . . .

إصطنبول مساء يوم الجمعة ٢٠/ رجب الفرد /١٤٣٩هـ

وكتبه

محيي الدّين بن محمّد عوّامة

مُحتوى الكتاب

مقدمة ٥

اسمه ونسبه وولادته ٧

نشأته وحبه للعلم ٩

طلبه للعلم ١١

نبوغه وأسبابه ٢١

فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ ٤٤

فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالىٰ ٤٨

محطات ووقفات تربوية في حياته ٥٧

ملامح تربوية في حياته الأسرية ٦٨

شخصيته وقوته العلمية ٨١

ذكر لبعض أفكاره وآرائه ٨٥

منهجه العام في كتاباته ٩١

منهجه العلمي في التأليف ٩٦

منهجه العلمي في التحقيق ٩٨

أسانيده وإجازاته ١٠٣

شهادة علماء عصره فيه ١١٥
كتب فضيلة سيدي الوالد ١٣٩
محتوى الكتاب ١٤٣